

سورة التكاثر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْهَيْكُلُ التَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّى زُرَّتُمُ الْمَقَابِرَ ﴿٢﴾﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى : قوله تعالى ﴿الْهَيْكُلُ التَّكَاثُرُ﴾ ﴿الْهَيْكُلُ﴾ شغلكم . قال :

فَالْهَيْكُلُ عَنْ ذِي ثَمَامٍ مُغِيلٍ

أي : شغلكم المباهاة بكثرة المال والعدد عن طاعة الله ، حتى متم ودفنتم في المقابر ، وقيل ﴿الْهَيْكُلُ﴾ أنساكم ، ﴿التَّكَاثُرُ﴾ أي من الأموال والأولاد ، قاله ابن عباس والحسن ، وقال قتادة : أي التفاخر بالقبائل والعشائر ^(١) ، وقال الضحاك : أي الهالك المشاغل بالمعاش والتجارة ، يقال : لهيت عن كذا بالكسر الهى لهيا ولهيانا : إذا سلوت عنه ، وتركت ذكره ، وأضربت عنه ، والهاه : أي شغله ، ولهاه به تلهية ، أي : علله ، والتكاثر : المكاثرة ، قال مقاتل و قتادة وغيرهما : نزلت في اليهود حين قالوا : نحن أكثر من بني فلان ، وبنو فلان أكثر من بني فلان ، ألهاهم ذلك حتى ماتوا ضلالا ^(٢) ، وقال ابن زيد : نزلت في فخذ من الأنصار ، وقال ابن عباس ومقاتل والكلبي : نزلت في حين من قريش : بني عبد مناف ، وبني سهم ، تعادوا وتكاثروا بالسادة والأشراف في الإسلام ، فقال كل حي منهم نحن أكثر سيذا ، وأعز عزيزا ، وأعظم نفرا ، وأكثر عائدا ، فكثر بنو عبد مناف سهما ، ثم تكاثروا بالأموات ، فكثرتهم سهم ، فنزلت ﴿الْهَيْكُلُ التَّكَاثُرُ﴾ ^(٣) بأحيائكم فلم ترضوا ﴿حَتَّى زُرَّتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ مفتخرين بالأموات ، وروى سعيد عن قتادة قال : كانوا يقولون نحن أكثر من بني فلان ، ونحن أعد من بني فلان ؛ وهم كل يوم يتساقطون إلى آخرهم ، والله مازالوا كذلك حتى صاروا من أهل القبور كلهم ^(٤) ، وعن عمرو بن دينار : حلف أن هذه السورة نزلت في التجار ^(٥) ، وعن شيبان عن قتادة قال : نزلت في أهل الكتاب ^(٦) .

قلت : الآية تعم جميع ما ذكر وغيره ، وفي «صحيح» مسلم عن مطرف عن أبيه ، قال : أتيت

(١) صحيح : الطبري (٣٠ / ٣١٢ ، ٣١٣) في تفسيره .

(٢) مرسل عن قتادة : الطبري (٣٠ / ٣١٢ ، ٣١٣) في تفسيره ، والواحدى (ص ٤٠٠) في أسباب النزول .

(٣) ضعيف : الواحدى (ص ٤٠٠) في أسباب النزول ، ورواه في اللباب (ص ٤٦٧) ، عن ابن بريده وعزاه لابن أبي حاتم في تفسيره .

قلت : لكن سنده ضعيف ففي سنده صالح بن حيان وهو القرشي : ضعيف . تفسير ابن أبي حاتم (١٢ / ٤٤٥) .

(٤) مرسل : الطبري (٣٠ / ٣١٢) في تفسيره .

(٥ ، ٦) مرسلان : فالآية عامة - والله أعلم كما ذكر المصنف .

النبي ﷺ وهو يقرأ ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ قال: «يقول ابن آدم: مالي مالي! وهل لك يا بن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت وما سوى ذلك فذاهب وتاركه للناس»^(١)، وروى البخاري عن ابن شهاب: أخبرني أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «لو أن لابن آدم واديا من ذهب، لأحب أن يكون له واديان، ولن يملأ فاه إلا التراب، ويتوب الله على من تاب»^(٢)، قال ثابت عن أنس عن أبي: كنا نرى هذا من القرآن، حتى نزلت ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾^(٣)، قال ابن العربي^(٤): وهذا نص صحيح مليح، غاب عن أهل التفسير فجهلوا وجاهلوا والحمد لله على المعرفة، وقال ابن عباس: قرأ النبي ﷺ ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ قال: «تكاثر الأموال: جمعها من غير حقها، ومنعها من حقها، وشدها في الأوعية».

الثانية: قوله تعالى ﴿حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ أي حتى أتاكم الموت، فصرتم في المقابر زواراً، ترجعون منها كرجوع الزائر إلى منزله من جنة أو نار، يقال لمن مات: قد زار قبره، وقيل: أي ألهاكم التكاثر حتى عددتهم الأموات، على ما تقدم، وقيل: هذا وعيد، أي اشتغلتم بمفاخرة الدنيا، حتى تزوروا القبور، فتروا ما ينزل بكم من عذاب الله عز وجل.

الثالثة: قوله تعالى ﴿الْمَقَابِرَ﴾ جمع مَقْبَرَةٍ ومَقْبَرَةٌ بفتح الباء وضمها، والقبور: جمع القبر قال:

أرى أهلَ القُصُورِ إذا أميتوا بنوا فوقَ المقابرِ بالصُّخُورِ
أبوا إلا مِبَاهَاةً وفخراً على الفقراءِ حتى في القُبُورِ

وقد جاء في الشعر: المقبر قال:

لكلِّ أناسٍ مَقْبَرٌ بفنائهم فهم يَنْقُصُونَ والقُبُورُ تَزِيدُ

وهو المقبري والمقبري: لأبي سعيد المقبري؛ وكان يسكن المقابر، وقبرت الميت أقبره وأقبره قبراً، أي دفنته، وأقبرته أي أمرت بأن يقبر، وقد مضى في سورة «عبس» القول فيه، والحمد لله.

الرابعة: لم يأت في التنزيل ذكر المقابر إلا في هذه السورة، وزيارتها من أعظم الدواء للقلب القاسي؛ لأنها تذكر الموت والآخرة، وذلك يحمل على قصر الأمل، والزهد في الدنيا، وترك الرغبة فيها، قال النبي ﷺ: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور، فزوروا القبور، فإنها تزهد في الدنيا، وتذكر الآخرة» رواه ابن مسعود؛ أخرجه ابن ماجه^(٥)، وفي «صحيح» مسلم من حديث أبي هريرة: «فإنها تذكر الموت»^(٦)، وفي الترمذي عن بريدة: «فإنها تذكر الآخرة»، قال: هذا حديث حسن صحيح^(٧)، وفيه عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ لعن زوارات القبور^(٨)، قال: وفي الباب عن

(١) صحيح: مسلم (٢٩٥٨) في الزهد والرفائق .

(٢) صحيح: البخاري (٦٤٣٩) في الرقاق .

(٣) صحيح: البخاري (٦٤٤٠) في الرقاق .

(٤) أحكام القرآن (٤/ ١٩٧٤) في أحكام القرآن .

(٥) ضعيف: ابن ماجه (١٥٧١) في الجنائز وضعفه الألباني (٤٢٧٩) في ضعيف الجامع .

(٦) صحيح: مسلم (٩٧٦) في الجنائز .

(٧) حسن صحيح: الترمذي (١٠٥٤) في الجنائز وصححه الألباني هناك .

(٨) حسن صحيح: الترمذي (١٠٥٦) في الجنائز، وصححه الألباني هناك .

ابن عباس وحسان بن ثابت، قال أبو عيسى: وهذا حديث حسن صحيح، وقد رأى بعض أهل العلم أن هذا كان قبل أن يرخص النبي ﷺ في زيارة القبور؛ فلما رخص دخل في رخصته الرجال والنساء، وقال بعضهم: إنما كره زيارة القبور للنساء لقلّة صبرهن، وكثرة جزعهن.

قلت: زيارة القبور للرجال متفق عليه عند العلماء، مختلف فيه للنساء، أما الشواوب فحرام عليهن الخروج، وأما القواعد فمباح لهن ذلك، وجائز لجميعهن ذلك إذا انفردن بالخروج عن الرجال؛ ولا يختلف في هذا إن شاء الله، وعلى هذا المعنى يكون قوله: « زوروا القبور » عامًا، وأما موضع أو وقت يخشى فيه الفتنة من اجتماع الرجال والنساء، فلا يحل ولا يجوز، فبينما الرجل يخرج ليعتبر، فيقع بصره على امرأة فيفتن، وبالعكس فيرجع كل واحد من الرجال والنساء مأزورا غير مأجور، والله أعلم.

الخامسة: قال العلماء: ينبغي لمن أراد علاج قلبه وانقياده بسلاسل القهر إلى طاعة ربه، أن يكثّر من ذكر هادم اللذات، ومفرق الجماعات، وموتم البنين والبنات، ويواظب على مشاهدة المحتضرين، وزيارة قبور أموات المسلمين، فهذه ثلاثة أمور، ينبغي لمن قسا قلبه، ولزمه ذنبه، أن يستعين بها على دواء دائه، ويستصرخ بها على فتن الشيطان وأعوانه؛ فإن انتفع بالإكثار من ذكر الموت، وانجلى به قساوة قلبه فذاك، وإن عظم عليه ران القلب، واستحكمت فيه دواعي الذنب؛ فإن مشاهدة المحتضرين، وزيارة قبور أموات المسلمين، تبلغ في دفع ذلك ما لا يبلغه الأول؛ لأن ذكر الموت إخبار للقلب بما إليه المصير، وقائم له مقام التخويف والتحذير، وفي مشاهدة من احتضر، وزيارة قبر من مات من المسلمين معاينة ومشاهدة؛ فلذلك كان أبلغ من الأول؛ قال ﷺ: « ليس الخبير كالمعاينة » رواه ابن عباس (١)، فأما الاعتبار بحال المحتضرين، فغير ممكن في كل الأوقات، وقد لا يتفق لمن أراد علاج قلبه في ساعة من الساعات، وأما زيارة القبور فوجودها أسرع، والانتفاع بها أليق وأجدر، فينبغي لمن عزم على الزيارة، أن يتأدب بآدابها، ويحضر قلبه في إتيانها، ولا يكون حظه منها التطواف على الأحداث فقط؛ فإن هذه حالة تشاركه فيها بهيمة، ونعوذ بالله من ذلك، بل يقصد بزيارته وجه الله تعالى، وإصلاح فساد قلبه، أو نفع الميت بما يتلو عنده من القرآن والدعاء، ويتجنب المشي على المقابر، والجلوس عليها ويسلم إذا دخل المقابر وإذا وصل إلى قبر ميتة الذي يعرفه سلم عليه أيضا، وأتاه من تلقاء وجهه، لأنه في زيارته كمخاطبته حيًا، ولو خاطبه حيًا لكان الأدب استقباله بوجهه؛ فكذلك ها هنا، ثم يعتبر بمن صار تحت التراب، وانقطع عن الأهل والأحباب، بعد أن قاد الجيوش والعساكر، ونافس الأصحاب والعشائر، وجمع الأموال والذخائر؛ فجاء الموت في وقت لم يحتسبه، وهول لم يرتقبه، فليتأمل الزائر حال من مضى من إخوانه، ودرج من أقرانه الذين بلغوا الآمال، وجمعوا الأموال؛ كيف انقطعت آمالهم، ولم تغن عنهم أموالهم، ومحا التراب محاسن وجوههم، وافترقت في القبور أجزاءهم، وترمل من بعدهم نساؤهم، وشمل ذل اليتيم أولادهم، واقتسم غيرهم طريفهم وتلادهم، وليتذكر ترددهم في المآرب، وحرصهم على نيل المطالب، وانخداعهم لمواتة

(١) صحيح: أحمد (١/ ٢١٥، ٢٧١) في المسند، وصححه الألباني (٥٣٧٤) في صحيح الجامع، عن ابن عباس - رضي الله عنهما.

الأسباب، وركونهم إلى الصحة والشباب، وليعلم أن ميله إلى اللهو واللعب كميلهم، وغفلته عما بين يديه من الموت الفظيع، والهلاك السريع، كغفلتهم، وأنه لا بد صائر إلى مصيرهم، وليحضر بقلبه ذكر من كان مترددا في أغراضه، وكيف تهدمت رجلاه، وكان يتلذذ بالنظر إلى ما خوله وقد سالت عيناه، ويصوّل ببلاغة نطقه وقد أكل الدود لسانه، ويضحك لمواتة دهره وقد أبلى التراب أسنانه، وليتحقق أن حاله كحال، ومآله كماله، وعند هذا التذكر والاعتبار تزول عنه جميع الأغيار الدنيوية، ويقبل على الأعمال الأخروية، فيزهد في دنياه، ويقبل على طاعة مولاه، ويلين قلبه، وتخضع جوارحه.

﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كَلَّا﴾ قال الفراء: أي: ليس الأمر على ما أنتم عليه من التفاخر والتكاثر، والتمام على هذا ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أي سوف تعلمون عاقبة هذا ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾: وعيد بعد وعيد؛ قاله مجاهد، ويحتمل أن يكون تكراره على وجه التأكيد والتغليظ؛ وهو قول الفراء، وقال ابن عباس: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ما ينزل بكم من العذاب في القبر، ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾: في الآخرة إذا حل بكم العذاب، فالأول في القبر، والثاني في الآخرة؛ فالتكرار للحالتين، وقيل: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ عند المعايمة، أن ما دعوتكم إليه حق، ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾: عند البعث أن ما وعدتكم به صدق، وروى زر بن حبيش عن علي رضي الله عنه، قال: كنا نشك في عذاب القبر، حتى نزلت هذه السورة^(١)، فأشار إلى أن قوله: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ يعني في القبور، وقيل: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾؛ إذا نزل بكم الموت، وجاءتكم رسل لتنزح أرواحكم، ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾: إذا دخلتم قبوركم، وجاءكم منكر ونكير، وحاط بكم هول السؤال، وانقطع منكم الجواب.

قلت: فتضمنت السورة القول في عذاب القبر، وقد ذكرنا في كتاب «التذكرة» أن الإيمان به واجب، والتصديق به لازم؛ حسبما أخبر به الصادق، وأن الله تعالى يحيي العبد المكلف في قبره برد الحياة إليه، ويجعل له من العقل في مثل الوصف الذي عاش عليه؛ ليعقل ما يسأل عنه، وما يجب به، ويفهم ما أتاه من ربه، وما أعد له في قبره، من كرامة وهوان، وهذا هو مذهب أهل السنة، والذي عليه الجماعة من أهل الملة، وقد ذكرناه هناك مستوفى، والحمد لله، وقيل: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ عند النشور أنكم مبعوثون ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ في القيامة أنكم معذبون، وعلى هذا تضمنت أحوال القيامة من بعث وحشر، وسؤال وعرض، إلى غير ذلك من أهوالها وأنزاعها؛ حسب ما ذكرناه في «كتاب التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة»، وقال الضحاك: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ يعني الكفار، «ثم كلا سوف يعلمون»: قال: المؤمنون، وكذلك كان يقرؤها^(٢)، الأولى بالتاء والثانية بالياء.

(١) ضعيف: رواه الطبري بإسنادين في أحدهما حجاج بن أرطاة وهو مدلس، وفي الآخر ابن أبي ليلى وهو سيئ الحفظ تفسير الطبري (٣٠ / ٣١٣)، وضعفه الألباني (٣٣٥٥) في سنن الترمذي كتاب التفسير (ص ٧٦٢ ط -

مكتبة المعارف - الرياض .

(٢) ضعيف: الطبري (٣٠ / ٣١٣) في تفسيره .

﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴾

قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ أعاد ﴿كَلَّا﴾ وهو زجر وتنبيه، لأنه عقب كل واحد بشيء آخر؛ كأنه قال: لا تفعلوا، فإنكم تندمون، لا تفعلوا، فإنكم تستوجبون العقاب، وإضافة العلم إلى اليقين، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾ [الواقعة: ٩٥]، وقيل: اليقين ها هنا: الموت؛ قاله قتادة^(١)، وعنه أيضا: البعث؛ لأنه إذا جاء زال الشك، أي لو تعلمون علم البعث وجواب ﴿لَوْ﴾ محذوف؛ أي لو تعلمون اليوم من البعث ما تعلمونه إذا جاءتكم نفخة الصور، وانشقت للحدود عن جشكم، كيف يكون حشركم؟ لشغلكم ذلك عن التكاثر بالدنيا، وقيل: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ أي لو قد تطايرت الصحف، فثقتي وسعيدي، وقيل: إن ﴿كَلَّا﴾ في هذه المواضع الثلاثة بمعنى «إلا» قاله ابن أبي حاتم^(٢)، وقال الفراء: هي بمعنى «حقا» وقد تقدم الكلام فيها مستوفى.

﴿ لَتَرُونَ الْجَحِيمَ ثُمَّ لَتَرُونَهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴾

قوله تعالى: ﴿لَتَرُونَ الْجَحِيمَ﴾ هذا وعيد آخر، وهو على إضمار القسم؛ أي لترون الجحيم في الآخرة، والخطاب للكفار الذين وجبت لهم النار، وقيل: هو عام؛ كما قال: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١] فهي للكفار دار، وللمؤمنين ممر، وفي الصحيح: « فيمر أولهم كالبرق، ثم كالريح، ثم كالطير... » الحديث،^(٣) وقد مضى في سورة مريم، وقرأ الكسائي وابن عامر: ﴿لَتَرُونَ﴾ بضم التاء^(٤)، من أريته الشيء؛ أي تحشرون إليها فترونها، وعلى فتح التاء هي قراءة الجماعة؛ أي لترون الجحيم بأبصاركم على البعد، ﴿ثُمَّ لَتَرُونَهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ أي مشاهدة، وقيل: هو إخبار عن دوام مقامهم في النار؛ أي هي رؤية دائمة متصلة، والخطاب على هذا للكفار، وقيل: معنى ﴿لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ أي لو تعلمون اليوم في الدنيا علم اليقين فيما أمامكم، مما وصفت ﴿لَتَرُونَ الْجَحِيمَ﴾ بعيون قلوبكم؛ فإن علم اليقين يريك الجحيم بعين فؤادك؛ وهو أن تتصور لك تارات القيامة، وقطع مسافاتهما، ﴿ثُمَّ لَتَرُونَهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾: أي عند المعاينة بعين الرأس، فتراها يقينا، لا تغيب عن عينك، ﴿ثُمَّ لَتَسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ في موقف السؤال والعرض.

﴿ ثُمَّ لَتَسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتَسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة، قال: خرج رسول الله ﷺ ذات يوم أو ليلة، فإذا هو بأبي بكر وعمر؛ فقال: « ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة »؟ قالوا: الجوع يا رسول الله، قال: «وأنا والذي نفسي بيده لأخرجني الذي أخرجكما قوموا» فقاموا معه؛ فأتى رجلا من الأنصار، فإذا هو ليس في بيته، فلما رآته المرأة قالت: مرحبا وأهلا، فقال لها رسول الله ﷺ: « أين فلان »؟ قالت: [ذهب] يستعذب لنا من الماء؛ إذ جاء الأنصاري،

(١) صحيح إلى قتادة: الطبري (٣٠/ ٣١٣) في تفسيره. (٢) انظر تفسير ابن أبي حاتم (١٢/ ٤٤٨).

(٣) صحيح: مسلم (١٩٥/ ٣٢٩) في الإيمان، عن أبي هريرة - رضي الله عنه.

(٤) قراءة سبعة متواترة: تقريب النشر (ص ١٨٩).

فنظر إلى رسول الله ﷺ وصاحبيه، ثم قال: الحمد لله إما أحد اليوم أكرم أضيافاً مني، قال: فانطلق، فجاءهم بعددق فيه بُسْرٌ وتمر ورطب، فقال: كلوا من هذه، وأخذ المديّة فقال له رسول الله ﷺ: «إياك والحلوب» فذبح لهم، فأكلوا من الشاة، ومن ذلك العذق، وشربوا؛ فلما أن شبعوا ورووا، قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر: «والذي نفسي بيده لتسألن عن نعيم هذا اليوم، يوم القيامة، أخرجكم من بيوتكم الجوع، ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم»، خرجه الترمذي وقال: «هذا والذي نفسي بيده من النعيم الذي تسألون عنه يوم القيامة: ظل بارد، ورطب طيب، وماء بارد» وكنى الرجل الذي من الأنصار، فقال: أبو الهيثم بن التيهان، وذكر قصته (١).

قلت: اسم هذا الرجل الأنصاري مالك بن التيهان، ويكنى أبا الهيثم، وفي هذه القصة يقول عبدالله بن رواحة، يمدح بها أبا الهيثم بن التيهان:

فلم أرَ كالإسلام عزا لأمة	ولا مثل أضياف الإراشي مَعشرا
نبي وصدیق وفاروق أمة	وخير بني حواء فرعاً وعنصرا
فوفوا لميقات وقدر قضية	وكان قضاء الله قدراً مقدرا
إلى رجل نجد يباري بجوده	شموس الضحى جوداً ومجداً ومفخرا
وفارس خلق الله في كل غارة	إذا لبس القوم الحديد المسمر
ففدى وحياً ثم أدنى قراهم	فلم يُقرهم إلا سميئاً مُتمرا

وقد ذكر أبو نعيم الحافظ، عن أبي عسيب مولى رسول الله ﷺ؛ قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ليلاً، فدعاني فخرجت إليه، ثم مر بأبي بكر فدعاه، فخرج إليه، ثم مر بعمر فدعاه، فخرج إليه، فانطلق حتى دخل حائطا لبعض الأنصار، فقال لصاحب الحائط: «أطعمنا بسرا» فجاء بعددق، فوضعه فأكلوا، ثم دعا بماء فشرب، فقال: «لتسألن عن هذا يوم القيامة» قال: وأخذ عمر العذق، فضرب به الأرض حتى تناثر البسر نحو وجه رسول الله ﷺ ثم قال: يا رسول الله، إنا لمسؤولون عن هذا يوم القيامة؟ قال: «نعم، إلا من ثلاث: كِسْرَةٌ يَسُدُّ بِهَا جوعته، أو ثوب يستر به عورته، أو جحر يأوي فيه من الحر والقر» (٢).

واختلف أهل التأويل في النعيم المسؤول عنه على عشرة أقوال:

أحدها: الأمن والصحة؛ قاله ابن مسعود، الثاني: الصحة والفراغ؛ قاله سعيد بن جبير، وفي البخاري عنه عليه الصلاة والسلام: «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ» (٣). الثالث: الإدراك بحواس السمع والبصر؛ قاله ابن عباس، وفي التنزيل ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾ [الإسراء: ٣٦]، وفي الصحيح عن أبي هريرة وعن أبي سعيد قالوا: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بالعبد يوم القيامة، فيقول الله له: ألم أجعل لك سمعاً وبصراً، ومالاً وولداً...» (٤).

(١) صحيح: مسلم (٢٠٣٨) في الأشربة، والترمذي (٢٣٦٩) في الزهد.

(٢) ذكره أبو نعيم (٢٧/٢) في الحلية، والحديث السابق له شاهد.

(٣) صحيح: البخاري (٦٤١٢) في الرقاق عن ابن عباس.

(٤) صحيح: وقد سبق.

الحديث، خرجه الترمذي وقال فيه: حديث حسن صحيح، الرابع: ملاذ المأكول والمشروب قاله جابر ابن عبد الله الأنصاري، وحديث أبي هريرة يدل عليه، الخامس: أنه الغداء والعشاء؛ قاله الحسن، السادس: قبول مكحول الشامي: أنه شَبِعُ البطون وبارد الشراب، وظلال المساكن، واعتدال الخلق؛ ولذة النوم، ورواه زيد بن أسلم عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ يعني عن شبع البطون» فذكره، ذكره الماوردي (١)، وقال: وهذا السؤال يعم الكافر والمؤمن، إلا أن سؤال المؤمن تبشير بأن يجمع له بين نعيم الدنيا ونيعم الآخرة، وسؤال الكافر تقريع أن قابل نعيم الدنيا بالكفر والمعصية، وقال قوم: هذا السؤال عن كل نعمة، إنما يكون في حق الكفار، فقد روي أن أبا بكر لما نزلت هذه الآية قال: يا رسول الله، أرأيت أكلة أكلتها معك في بيت أبي الهيثم بن التيهان، من خبز شعير ولحم وبسر قد ذنب (٢)، وماء عذب، أتخاف علينا أن يكون هذا من النعيم الذي نسال عنه؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «ذلك للكفار»؛ ثم قرأ ﴿وَهَلْ نَجَاؤِي إِلَّا الْكُفُورُ﴾ [سبا: ١٧] ذكره القشيري أبو نصر (٣)، وقال الحسن لا يسأل عن النعيم إلا أهل النار، وقال القشيري: والجمع بين الأخبار: أن الكل يسألون، ولكن سؤال الكفار توبيخ، لأنه قد ترك الشكر، وسؤال المؤمن سؤال تشريف، لأنه شكر، وهذا النعيم في كل نعمة.

قلت: هذا القول حسن، لأن اللفظ يعم، وقد ذكر الفريابي قال: حدثنا ورقاء بن أبي نجيح عن مجاهد، في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ قال: كل شيء من لذة الدنيا (٤)، وروى أبو الأحوص عن عبد الله عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله تعالى ليعدد نعمه على العبد يوم القيامة، حتى يعد عليه: سألتني فلانة أن أزوجهها، فسميها باسمها، فزوجتكها» (٥)، وفي الترمذي عن أبي هريرة قال: لما نزلت هذه الآية ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ قال الناس: يا رسول الله، عن أي النعيم نسال؟ فإنما هما الأسودان والعدو حاضر، وسيوفنا على عواتقنا، قال: «إن ذلك سيكون» (٦)، وعنه قال قال رسول الله ﷺ: «إن أول ما يسأل عنه يوم القيامة يعني العبد أن يقال له: ألم نصح لك جسمك، ونرويك من الماء البارد» قال: حديث غريب (٧)، وروى من حديث ابن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا كان يوم القيامة دعا الله بعبد من عباده، فيوقفه بين يديه، فيسأله

(١) مرسل: الماوردي (٦/ ٣٣٢) في التكت والعيون .

(٢) ذنب: بدا فيه الإرتطاب من قبل ذنبه . النهاية (٢/ ١٧٠) لابن الأثير .

(٣) كذا في تفسير القشيري (٨/ ١٠١) .

(٤) صحيح: الطبري (٣٠/ ٣١٨) في تفسيره .

(٥) ذكره الهيثمي (١٠/ ٣٤٩) في المجمع وعزاه للبخاري من رواية سعيد بن مسلمة الأموي عن ليث بن أبي سليم وكلاهما ضعيف وقد وثقا وبقية رجاله رجال الصحيح عن ابن عمر .

وقد ذكره البيهقي (٤/ ١٤٨) في الشعب موقوفاً على عبد الله بن سلام - رضي الله عنه .

ورواه ابن فضيل الضبي (١/ ٣٣٦) في الدعاء بسند فيه إبراهيم الهجري وهو ضعيف جداً .

(٦) حسن بشواهد: هكذا حكم عليه الألباني في سنن الترمذي (٣٣٥٧) في التفسير . والأسودان : الماء والتمر كما في النهاية (٢/ ٩١٤) لابن الأثير .

(٧) غريب: الترمذي (٣٣٥٨) في التفسير ، وصححه الألباني هناك .

عن جابه كما يسأله عن ماله ^(١)، والجاه من نعيم الدنيا لا محالة، وقال مالك رحمه الله: إنه صحة البدن، وطيب النفس، وهو القول السابع، وقيل: النوم مع الأمن والعافية، وقال سفيان بن عيينة: إن ما سد الجوع وستر العورة من خشن الطعام واللباس، لا يسأل عنه المرء يوم القيامة، وإنما يسأل عن النعيم، قال: والدليل عليه أن الله تعالى أسكن آدم الجنة، فقال له: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى﴾ [طه: ١١٨]، فكانت هذه الأشياء الأربعة - ما يسد به الجوع، وما يدفع به العطش، وما يستكن فيه من الحر، ويستر به عورته - لآدم عليه السلام بالإطلاق، لا حساب عليه فيها، لأنه لا بد له منها.

قلت: ونحو هذا ذكره القشيري أبو نصر، قال: إن عما لا يسأل عنه العبد لباسا يوارى سواته، وطعاما يقيم صلبه، ومكانا يكنه من الحر والبرد.

قلت: وهذا منتزع من قوله عليه الصلاة والسلام: «ليس لابن آدم حق في سوى هذه الخصال: بيت يسكنه، وثوب يوارى عورته، وجلف الخبز والماء» خرجه الترمذي ^(٢)، وقال النضر بن شميل: جلف الخبز: ليس معه إدام، وقال محمد بن كعب: النعيم: هو ما أنعم الله علينا بمحمد ﷺ، وفي التنزيل: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، وقال الحسن أيضا والمفضل: هو تخفيف الشرائع، وتيسير القرآن، قال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدْكِرٍ﴾ [القمر: ١٧].

قلت: وكل هذه نعم، فيسأل العبد عنها: هل شكر ذلك أم كفر، والأقوال المتقدمة أظهر. والله أعلم.

(١) ضعيف جداً: الطبراني في الأوسط والصغير كما في المجمع (١٠ / ٣٤٦)، وقال: «وفيه يوسف بن يونس أخو مسلم الأفتس وهو: ضعيف جداً».

(٢) ضعيف: الترمذي (٢٣٤١) في الزهد، وضعفه الألباني (١٠٦٣) في الضعيفة.

سورة العصر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالْعَصْرِ ﴾

فيه مسألتان :

الأولى : قوله تعالى: ﴿ وَالْعَصْرِ ﴾ أي : الدهر؛ قاله ابن عباس (١) وغيره، فالعصر مثل الدهر؛

ومنه قول الشاعر:

سَبِيلُ الْهَوَى وَعَرٌّ وَبِحَرِّ الْهَوَى غَمْرٌ وَيَوْمُ الْهَوَى شَهْرٌ وَشَهْرُ الْهَوَى دَهْرٌ
أي عصر أقسم الله به عز وجل؛ لما فيه من التنبية بتصرف الأحوال وتبدلها، وما فيها من الدلالة على الصانع، وقيل: العصر: الليل والنهار، قال حميد بن ثور:

ولن يلبث العصران: يومٌ وليلةٌ إذا طلبا أن يدركا ما تيمما

والعصران أيضا: الغداة والعشي، قال:

وَأَمِطْلُهُ الْعَصْرَيْنِ حَتَّى يَمْلَنِي وَيَرْضَى بِنَصْفِ الدَّيْنِ وَالْأَنْفِ رَاغِمٌ

يقول: إذا جاءني أول النهار وعدته آخره، وقيل: إنه العشي، وهو ما بين زوال الشمس

وغروبها؛ قاله الحسن وقتادة، ومنه قول الشاعر:

تَرَوِّحُ بِنَا يَا عَمْرُو قَدْ قَصَّرَ الْعَصْرُ وَفِي الرَّوْحَةِ الْأُولَى الْغَنِيمَةُ وَالْأَجْرُ

وعن قتادة أيضا: هو آخر ساعة من ساعات النهار، وقيل: هو قسم بصلاة العصر، وهي

الوسطى؛ لأنها أفضل الصلوات؛ قاله مقاتل، يقال: أذن للعصر، أي: لصلاة العصر، وصليت

العصر؛ أي: صلاة العصر، وفي الخبر الصحيح: « الصلاة الوسطى: صلاة العصر » (٢)، وقد مضى

في سورة «البقرة» بيانه، وقيل: هو قسم بعصر النبي ﷺ، لفضله بتجديد النبوة فيه، وقيل: معناه

ورب العصر.

الثانية : قال مالك: من حلف ألا يكلم رجلا عصرًا لم يكلمه سنة، قال ابن العربي (٣): إنما

حمل مالك يمين الخالف ألا يكلم امرأ عصرًا على السنة؛ لأنه أكثر ما قيل فيه، وذلك على أصله في

تغليظ المعنى في الأيمان، وقال الشافعي: يبر ساعة؛ إلا أن تكون له نية، وبه أقول؛ إلا أن يكون

الخالف عربيًا، فيقال له: ما أردت؟ فإذا فسره بما يحتمله قبل منه، وأن يكون الأقل، ويجيء على

(١) انظر: المحرر الوجيز (٧/ ٥٨) لابن عطية .

(٢) متفق عليه: البخاري (٤٥٣٣) في التفسير، ومسلم (٦٢٧/ ٢٠٢) في المساجد ومواضع الصلاة عن علي -

رضي الله عنه. وانظر الآية (٢٣٨) من سورة البقرة .

(٣) انظر: أحكام القرآن (٤/ ١٩٧٩) للقاضي ابن العربي المالكي .

مذهب مالك أن يُحمل على ما يفسر، والله أعلم.

﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴾

هذا جواب القسم، والمراد به الكافر؛ قاله ابن عباس في رواية أبي صالح، وروى الضحاك عنه قال: يريد جماعة من المشركين: الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، والأسود بن عبدالمطلب بن أسد ابن عبد العزى، والأسود بن عبد يغوث، وقيل: يعني بالإنسان جنس الناس، ﴿لَفِي خُسْرٍ﴾ لفي غبن، وقال الأخفش: هلكة، الفراء: عقوبة؛ ومنه قوله تعالى: ﴿وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾ [الطلاق: ٩]. ابن زيد: لفي شر، وقيل: لفي نقص؛ والمعنى متقارب، وروى عن سلام «والعصر» بكسر الصاد، وقرأ الأعرج وطلحة وعيسى الثقفي «خُسْرٌ» بضم السين، وروى ذلك هارون عن أبي بكر عن عاصم، والوجه فيهما الاتباع، ويقال: خُسِرَ وخُسِرَ؛ مثل عُسِرَ وعُسِرَ، وكان عليّ يقرؤها: «والعصر ونوائب الدهر، إن الإنسان لفي خسر، وإنه فيه إلى آخر الدهر»^(١)، وقال إبراهيم: إن الإنسان إذا عمر في الدنيا وهرم، لفي نقص وضعف تراجع؛ إلا المؤمنين، فإنهم تكتب لهم أجورهم التي كانوا يعملونها في حال شبابهم؛ نظيره قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ (٢) ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾، [التين: ٥]، قال: وقرأنا: «والعصر إن الإنسان لفي خسر، وإنه في آخر الدهر»^(٢)، والصحيح ما عليه الأمة والمصاحف، وقد مضى الرد في مقدمة الكتاب على من خالف مصحف عثمان، وأن هذا ليس بقرآن يتلى؛ فتأمله هناك.

﴿ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ ﴾

قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ استثناء من الإنسان؛ إذ هو بمعنى الناس على الصحيح، ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: أدوا الفرائض المقرضة عليهم؛ وهم أصحاب رسول الله ﷺ، قال أبي بن كعب: قرأت على رسول الله ﷺ ﴿وَالْعَصْرُ﴾ ثم قلت ما تفسيرها يا نبي الله؟ قال: ﴿وَالْعَصْرُ﴾ قسم من الله، أقسم ربكم بآخر النهار^(٣)؛ ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾: أبو جهل ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾: أبو بكر، ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ عمر، ﴿وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ﴾ عثمان ﴿وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ﴾ علي، رضي الله عنهم أجمعين، وهكذا خطب ابن عباس على المنبر موقفاً عليه، ﴿وَتَوَّصُوا﴾ أي: تحابوا؛ أوصى بعضهم بعضاً وحث بعضهم بعضاً، ﴿بِالحَقِّ﴾ أي: بالتوحيد؛ كذا روى الضحاك عن ابن عباس، وقال قتادة: ﴿بِالحَقِّ﴾ أي: بالقرآن، وقال السدي: الحق هنا هو الله عز وجل، ﴿وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ﴾ على طاعة الله عز وجل، والصبر عن معاصيه، وقد تقدم. والله أعلم.

(١) صححه الحاكم (٥٨٢ / ٢) في المستدرک، وانظر: الطبري (٣٠ / ٣٢١) في تفسيره.

قلت: لكنها قراءة غير متواترة كما في تفسير ابن عطية (١٦ / ٣٦٢).

(٢) عزاه السيوطي (٣٠ / ٦٦٧) في الدر المنثور لعبد بن حميد، وقد أبطله المصنف.

(٣) ضعيف: علقه ابن عطية (٧ / ٥٨) في المحرر الوجيز، وكذا قال الثعلبي (٤ / ٢٨١) في تفسيره.

قلت: وما لا سند له فهو ضعيف.

سورة الهمزة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾

قد تقدم القول في «الويل» في غير موضع، ومعناه الخزي والعذاب والهلكة. وقيل: واد في جهنم. ﴿لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ قال ابن عباس: هم المشاؤون بالنميمة، المفرقون بين الأحبة، الباغون للبراء العيب^(١)؛ فعلى هذا هما بمعنى، وقال النبي ﷺ: «شرار عباد الله تعالى المشاؤون بالنميمة، المفسدون بين الأحبة، الباغون للبراء العيب»^(٢)، وعن ابن عباس أن الهمزة: القتات، واللمزة: العياب، وقال أبو العالية والحسن ومجاهد وعطاء بن أبي رباح: الهمزة: الذي يغتاب ويظعن في وجه الرجل، واللمزة: الذي يغتابه من خلفه إذا غاب^(٣)؛ ومنه قول حسان:

هَمَزْتُكَ فَاخْتَضَعْتَ بِذُلِّ نَفْسٍ بِقَافِيَةِ تَاجِجٍ كَالشُّوَاطِ

واختار هذا القول النحاس، قال: ومنه قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ [التوبة: ٥٨]، وقال مقاتل ضد هذا الكلام: إن الهمزة: الذي يغتاب بالغيبة، واللمزة: الذي يغتاب في الوجه، وقال قتادة ومجاهد: الهمزة: الطعان في الناس، واللمزة: الطعان في أنسابهم، وقال ابن زيد الهامز: الذي يهمز الناس بيده ويضربهم، واللمزة: الذي يلزمهم بلسانه ويعيبهم، وقال سفيان الثوري يهمز بلسانه، ويلمز بعينه^(٤)، وقال ابن كيسان: الهمزة: الذي يؤدي جلساءه بسوء اللفظ، واللمزة: الذي يكسر عينه على جلسائه، ويشير بعينه ورأسه وبجانبه، وقال مرة: هما سواء؛ وهو القتات الطعان للمرء إذا غاب، وقال زياد الأعجم:

تُدَلِّي بَوْدِي إِذَا لَاقَيْتَنِي كَذِبًا وَإِنْ أُغِيبَ فَأَنْتِ الْهَامِزُ اللَّمَزَةُ

وقال آخر:

إِذَا لَقَيْتِكَ عَنْ شَحَطٍ تُكَاشِرُنِي وَإِنْ تَغَيَّبْتُ كُنْتُ الْهَامِزَ اللَّمَزَةَ

الشحط: البعد، والهمزة: اسم وضع للمبالغة في هذا المعنى؛ كما يقال: سخرة وضحكة: للذي يسخر ويضحك بالناس، وقرأ أبو جعفر محمد بن علي والأعرج: «هُمَزَةٌ وَلُمَزَةٌ» بسكون الميم فيهما، فإن صح ذلك عنهما، فهي معنى المفعول، وهو الذي يتعرض للناس حتى يهمزوه ويضحكوا

(١) ضعيف: فيه جهالة المحدث، عن أبي الجوزاء عن ابن عباس - رضي الله عنهما - كما في تفسير الطبري (٣٠٠/٣٢١).

(٢) حسن بمجموع الشواهد: البخاري (٣٢٣) في الأدب المفرد، وأحمد (٤٥٩/٦) من حديث أسماء بنت يزيد، ووثق الهيثمي رجاله كما في المجمع (٩٣/٨) خلا شهر بن حوشب، وقال: وقد وثقه غير واحد.

(٣) (٤) أسانيدنا حسان: الطبري (٣٠٠/٣٢١، ٣٢٢) في تفسيره، وهو صحيح إلى قتادة.

وانظر: ابن عطية (٥٩/٧) في المحرر الوجيز.

منه، ويحملهم على الاغتياب، وقرأ عبدالله بن مسعود وأبو وائل والنخعي والأعمش «ويل للهمزة اللزمة»، وأصل الهمز: الكسر، والعض على الشيء بعنف؛ ومنه همز الحرف، ويقال: همزت رأسه، وهمزت الجوز بكفي كسرتة، وقيل لأعرابي: أتهمزون الفأرة؟ فقال: إنما تهمزها الهرة، الذي في «الصحاح»: وقيل لأعرابي أتهمز الفأرة؟ فقال السنور يهمزها، والأول قاله الثعلبي، وهو يدل على أن الهر يسمى الهمزة، قال العجاج:

وَمَنْ هَمَزْنَا رَأْسَهُ تَهَشَّمَا

وقيل: أصل الهمز واللمز: الدفع والضرب، لمزه يلمزه لمزاً: إذا ضربه ودفعه، وكذلك همزه: أي دفعه وضربه، قال الراجز:

وَمَنْ هَمَزْنَا عِزَّهُ تَبَرَّكَعَا عَلَى اسْتِهِ زَوْبَعَا أَوْ زَوْبَعَا

البركة: القيام على أربع، وبركعه فتبركع؛ أي: صرعه فوق على أسته؛ قاله في الصحاح، والآية نزلت في الأحنس بن شريق، فيما روى الضحاك عن ابن عباس^(١)، وكان يلمز الناس ويعيبهم: مقبلين ومدبرين، وقال ابن جريج: في الوليد بن المغيرة، وكان يغتاب النبي ﷺ من ورائه، ويقدح فيه في وجهه، وقيل: نزلت في أبي بن خلف^(٢)، وقيل: في جميل بن عامر الثقفي^(٣)، وقيل: إنها مرسله على العموم من غير تخصيص؛ وهو قول الأكثرين، قال مجاهد: ليست بخاصة لأحد، بل لكل من كانت هذه صفته، وقال الفراء: يجوز أن يذكر الشيء العام ويقصد به الخاص، قصد الواحد إذا قال: لا أزورك أبداً، فتقول: من لم يزرنني فلست بزاتره؛ يعني ذلك القائل.

﴿الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ﴾

أي أعده - زعم - لنواب الدهر؛ مثل كرم وأكرم، وقيل: أحصى عدده؛ قاله السدي، وقال الضحاك: أي أعد ماله لمن يرثه من أولاده، وقيل: أي: فاخر بعدده وكثرتة، والمقصود الذم على إمساك المال عن سبيل الطاعة، كما قال: ﴿مَنَّاغٍ لِلْخَيْرِ﴾ [ق: ٢٥]، وقال: ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَى﴾ [المعارج: ١٨] وقراءة الجماعة ﴿جَمَعَ﴾ مخفف الميم، وشددها ابن عامر وحمزة والكسائي على التثنية^(٤)، واختاره أبو عبيد؛ لقوله: ﴿وَعَدَّدَهُ﴾، وقرأ الحسن ونصر بن عاصم وأبو العالية ﴿جَمَعَ﴾ مخففاً، «وَعَدَّدَهُ» مخففاً أيضاً؛ فأظهروا التضعيف، لأن أصله عده وهو بعيد؛ لأنه وقع في المصحف بدالين، وقد جاء مثله في الشعر؛ لما أبرزوا التضعيف خففوه، قال:

مهلاً أمانة قد جربت من خلقي إني أجود لأقوام وإن ضنونا

أراد: ضنونا وبخلوا، فأظهر التضعيف؛ لكن الشعر موضع ضرورة، قال المهدي: من خفف

(١) منقطع: بين الضحاك وابن عباس الطبري (٣٠ / ٣٢٢) في تفسيره .

(٢) معضل : وذكره السيوطي (ص٤٦٨) في اللباب مقطوعاً على ابن إسحاق ، وعزه لابن المنذر .

(٣) ضعيف : فيه جهالة المروي عنه ، فقد رواه ابن أبي نجيح عن رجل من أهل الرقة فذكره ، كما في تفسير الطبري (٣٠ / ٣٢٣) .

(٤) قراءة متواترة : كما في تقريب النشر (ص١٨٩) .

﴿وَعَدَّهٗ﴾ فهو معطوف على المال؛ أي: وجمع عدده فلا يكون فعلا على إظهار التضعيف؛ لأن ذلك لا يستعمل إلا في الشعر.

﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾ كَلَّا لِيُبْذَنَ فِي الْحُطَمَةِ ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ﴿ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ﴿ الَّتِي تَطَّلُعُ عَلَى الْأَفْنِدَةِ ﴿ ﴿

قوله تعالى: ﴿يَحْسَبُ﴾ أي: يظن ﴿أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾ أي: يقيه حيا لا يموت؛ قاله السدي (١)، وقال عكرمة: أي يزيد في عمره (٢)، وقيل: أحياء فيما مضى، وهو ماض بمعنى المستقبل، يقال: هلك والله فلان ودخل النار؛ أي يدخل، ﴿كَلَّا﴾ رد لما توهمه الكافر؛ أي لا يخلد ولا يبقى له مال، وقد مضى القول في ﴿كَلَّا﴾ مستوفى، وقال عمر بن عبدالله مولى غفرة: إذا سمعت الله عز وجل يقول ﴿كَلَّا﴾ فإنه يقول كذبت، ﴿لِيُبْذَنَ﴾ أي ليطرحن وليلقين، وقرأ الحسن ومحمد بن كعب ونصر بن عاصم ومجاهد وحميد وابن محيصن: «لينيذان» بالثنية، أي هو وماله، وعن الحسن أيضا «لينيذنه» على معنى لينيذن ماله، وعنه أيضا بالنون «لينيذنه» على إخبار الله تعالى عن نفسه، وأنه ينيذ صاحب المال، وعنه أيضا «لينيذن» بضم الذال؛ على أن المراد الهمزة واللمزة والمال وجامعه.

قوله تعالى: ﴿فِي الْحُطَمَةِ﴾ وهي نار الله؛ سميت بذلك لأنها تكسر كل ما يلقي فيها وتحطمه وتهشمه، قال الراجز:

إنا حططنا بالقضيب مصعبا يوم كسرنا أنفه ليغضبا

وهي الطبقة السادسة من طبقات جهنم، حكاه الماوردي عن الكلبي، وحكى القشيري عنه ﴿الْحُطَمَةُ﴾ الذرّة الثانية من درك النار، وقال الضحاك: وهي الدرك الرابع، ابن زيد: اسم من أسماء جهنم.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ﴾ على التعظيم لشأنها، والتضخيم لأمرها، ثم فسرها ما هي فقال ﴿نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ﴾ أي التي أوقد عليها ألف عام، وألف عام، وألف عام؛ فهي غير خامدة؛ أعدها الله للعصاة، ﴿الَّتِي تَطَّلُعُ عَلَى الْأَفْنِدَةِ﴾ قال محمد بن كعب: تأكل النار جميع ما في أجسادهم، حتى إذا بلغت إلى الفؤاد، خلقوا خلقا جديدا، فرجعت تأكلهم، وكذا روى خالد بن أبي عمران عن النبي ﷺ: «أن النار تأكل أهلها، حتى إذا اطلعت على أفئدتهم انتهت، ثم إذا صدروا تعود، فذلك قوله تعالى: ﴿نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ﴿ الَّتِي تَطَّلُعُ عَلَى الْأَفْنِدَةِ﴾» (٣)، وخص الأفئدة لأن الألم إذا صار إلى الفؤاد مات صاحبه، أي: إنه في حال من يموت وهم لا يموتون؛ كما قال الله تعالى: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ [طه: ٧٤] فهم إذا أحياء في معنى الأموات، وقيل: معنى ﴿تَطَّلُعُ عَلَى الْأَفْنِدَةِ﴾ أي: تعلم مقدار ما يمتحقه كل واحد منهم من العذاب؛ وذلك بما استبقاه الله تعالى من الأمانة الدالة عليه، ويقال: أطلع فلان على كذا؛ أي علمه، وقد قال الله تعالى: ﴿تَدْعُونَ مِنْ أَدْبُرٍ وَتَوَلَّوْا﴾ [المعارج: ١٧]، وقال

(١، ٢) ذكرهما ابن أبي حاتم (١٢/ ٤٥١) في تفسيره.

(٣) ضعيف لإرساله: وقد وقفه ابن أبي حاتم (١٢/ ٤٥١) في تفسيره على محمد بن كعب القرظي.

وذكره السيوطي (٦/ ٦٧٠) موقوفاً على ابن كعب وعزاه لعبد بن حميد، وابن أبي حاتم.

تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّطًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان: ١٢]، فوصفها بهذا، فلا يبعد أن توصف بالعلم.

﴿إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّصَدَّةٌ ﴿٨﴾ فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ ﴿٩﴾﴾

أي: مطبقة؛ قاله الحسن والضحاك^(١)، وقد تقدم في سورة «البلد» القول فيه، وقيل: مغلقة؛ بلغة قريش، يقولون: آصدت الباب إذا أغلقته؛ قاله مجاهد، ومنه قول عبدالله بن قيس الرقيات:

إِنَّ فِي الْقَصْرِ لَوْ دَخَلْنَا غَزَا لَأَ
مُصَفَّقًا مَوْصَدًّا عَلَيْهِ الْحِجَابَ

﴿فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ﴾ الفاء بمعنى الباء؛ أي: موصدة بعمد ممددة؛ قاله ابن مسعود، وهي في قراءته «بعمد ممددة» في حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ: «ثم إن الله يبعث إليهم ملائكة بأطباق من نار، ومسامير من نار وعمد من نار، فتطبق عليهم بتلك الأطباق، وتشد عليهم بتلك المسامير، وتمد بتلك العمدة، فلا يبقى فيها خلل يدخل فيه روح، ولا يخرج منه غم، وينساهم الرحمن على عرشه، ويتشاغل أهل الجنة بنعيمهم، ولا يستغيثون بعدها أبدا، وينقطع الكلام، فيكون كلامهم زفيراً وشهيقاً؛ فذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّصَدَّةٌ ﴿٨﴾ فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ ﴿٩﴾﴾»^(٢)، وقال قتادة: ﴿عَمَدٌ﴾ يعذبون بها، واختاره الطبري، وقال ابن عباس: إن العمدة الممددة أغلال في أعناقهم، وقيل: قيود في أرجلهم؛ قاله أبو صالح^(٣)، وقال القشيري: والمعظم على أن العمدة أوتاد الأطباق التي تطبق على أهل النار، وتشد تلك الأطباق بالأوتاد، حتى يرجع عليهم غمها وحرها، فلا يدخل عليهم روح، وقيل: أبواب النار مطبقة عليهم وهم في عمد؛ أي: في سلاسل وأغلال مطولة، وهي أحكم وأرسخ من القصيرة، وقيل: هم في عمد ممددة؛ أي: في عذابها وآلامها يضربون بها، وقيل: المعنى في دهر ممدود؛ أي: لا انقطاع له، وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم «فِي عُمَدٍ» بضم العين والميم^(٤): جمع عمود، وكذلك ﴿عَمَدٌ﴾ أيضاً، قال الفراء: والعَمَدُ: جمعان صحيحان لعمود؛ مثل أديم آدم وأدم، وأفيق وأفق وأفق، أبو عبيدة: عمد: جمع عماد؛ مثل إهاب، واختار أبو عبيد ﴿عَمَدٌ﴾ بفتحين، وكذلك أبو حاتم؛ اعتباراً بقوله تعالى: ﴿رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد: ١٢]، وأجمعوا على فتحها، قال الجوهري: العمود: عمود البيت، وجمع القلة: أعمدة، وجمع الكثرة عُمُدٌ، وعَمَدٌ؛ وقرئ بهما قوله تعالى: ﴿فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ﴾، وقال أبو عبيدة: العمود، كل مستطيل من خشب أو حديد، وهو أصل للبناء مثل: العماد، عمدت الشيء فأنعمد؛ أي: أقمته بعماد يعتمد عليه، وأعمدته جعلت تحته عمداً، والله أعلم.

(١) ذكرهما الطبري (٣٠ / ٣٢٤، ٣٢٥) وسندهما حسن.

(٢) ضعيف: الترمذي الحكيم (٢ / ٣٥ - ٣٧) في نوادر الأصول.

(٣) واه: أبو صالح يكذب علي ابن عباس رضى الله عنهما وانظر: ابن أبي حاتم (١٢ / ٤٥١) في تفسيره.

(٤) قراءة سبعية متواترة: كما في تقريب النشر (ص ١٨٩).

سورة الفيل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْمُتَرَكِّفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿الْمُتَرَكِّفَ﴾ أي : ألم تخبر؟ وقيل : ألم تعلم؟ وقال ابن عباس : ألم تسمع؟ واللفظ استفهام، والمعنى تقرير، والخطاب للنبي ﷺ، ولكنه عام؛ أي : ألم تروا ما فعلت بأصحاب الفيل؟ أي : قد رأيتم ذلك، وعرفتم موضع مني عليكم، فما لكم لا تؤمنون؟ و﴿كَيْفَ﴾ في موضع نصب بـ ﴿فَعَلَ رَبُّكَ﴾ لا بـ ﴿الْمُتَرَكِّفَ﴾ من معنى الاستفهام.

الثانية : قوله تعالى : ﴿بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ الفيل معروف، والجمع أفيال؛ وفيل، وفيلة، قال ابن السكيت : ولا تقل أفيلة، والأثنى فيلة وصاحبه فيال، قال سيبويه : يجوز أن يكون أصل فيل فُعلًا، فكسر من أجل الياء؛ كما قالوا : أبيض وبيض، وقال الأخفش : هذا لا يكون في الواحد، إنما يكون في الجمع، ورجل فيل الرأي، أي : ضعيف الرأي، والجمع أفيال، ورجل فال؛ أي : ضعيف الرأي، مخطئ الفراسة، وقد فال الرأي يفيل فيولة، وفيل رأيه تفيلا : أي : ضعفه، فهو فيل الرأي.

الثالثة : في قصة أصحاب الفيل؛ وذلك أن أبرهة بنى القليس بصنعاء، وهي كنيسة لم ير مثلها في زمانها بشيء من الأرض، وكان نصرانياً، ثم كتب إلى النجاشي : إني قد بنيت لك أيها الملك كنيسة لم يبن مثلها لملك كان قبلك، ولست بمتته حتى أصرف إليها حج العرب فلما تحدث العرب بكتاب أبرهة ذلك إلى النجاشي، غضب رجل من النسأة^(١)، فخرج حتى أتى الكنيسة، فقعد فيها - أي : أحدث - ثم خرج فلقق بأرضه؛ فأخبر بذلك أبرهة، فقال : من صنع هذا؟ فقيل : صنعه رجل من أهل هذا البيت، الذي تحج إليه العرب بمكة، لما سمع قولك : أصرف إليها حج العرب غضب، فجاء فقعد فيها، أي : أنها ليست لذلك بأهل، فغضب عند ذلك أبرهة، وحلف ليسيرن إلى البيت حتى يهدمه، وبعث رجلاً كان عنده إلى بني كنانة يدعوهم إلى حج تلك الكنيسة؛ فقتلت بنو كنانة ذلك الرجل؛ فزاد أبرهة ذلك غضباً وحنقاً، ثم أمر الحبشة فتهيأت وتجهزت، ثم سار وخرج معه بالليل؛ وسمعت بذلك العرب، فأعظموه وفضعوا به، ورأوا جهاده حقا عليهم، حين سمعوا أنه يريد هدم الكعبة بيت الله الحرام، فخرج إليه رجل من أشرف أهل اليمن وملوكهم، يقال له : ذو نفر، فدعا قومه ومن أجابه من سائر العرب إلى حرب أبرهة، وجهاده عن بيت الله الحرام، وما يريد من هدمه وإخراجه؛ فأجابه من أجابه إلى ذلك، ثم عرض له فقاتله، فهزم ذو نفر وأصحابه، وأخذ له ذو

(١) قصد بهذا من يؤخرون الشهر الحرام، فيؤخرون المحرم ليجعلوه في صفر فيحلون المحرم، وذكره المصنف عند

نفر فأتي به أسيراً؛ فلما أراد قتله، قال له ذو نفر: أيها الملك لا تقتلني، فإنه عسى أن يكون بقائي معك خيراً لك من قتلي؛ فتركه من القتل، وجبسه عنده في وثاق، وكان أبرهة رجلاً حليماً، ثم مضى أبرهة على وجهه ذلك، يريد ما خرج له، حتى إذا كان بأرض خثعم عرض له نفيل بن حبيب الخثعمي في قبيلتي خثعم: شهران وناهس، ومن تبعه من قبائل العرب؛ فقاتله فهزمه أبرهة، وأخذ له نفيل أسيراً؛ فأتي به، فلما هم بقتله قال له نفيل: أيها الملك لا تقتلني فإنني دليلك بأرض العرب، وهاتان يدي لك على قبيلتي خثعم: شهران وناهس، بالسلم والطاعة؛ فخلى سبيله، وخرج به معه يدله، حتى إذا مر بالطائف خرج إليه مسعود بن معتب في رجال من ثقيف، فقالوا له: أيها الملك، إنما نحن عبيدك؛ سامعون لك مطيعون، ليس عندنا لك خلاف، وليس بيتنا هذا البيت الذي تريد - يعنون اللات - إنما تريد البيت الذي بمكة، نحن نبعث معك من يدلك عليه؛ فتجاوز عنهم، وبعثوا معه أبا رغال، حتى أنزله بالمغمس^(١) فلما أنزله به مات أبو رغال هناك، فرجمت قبره العرب؛ فهو القبر الذي يرحم الناس بالمغمس، وفيه يقول الشاعر:

وَأَرْجَمُ قَبْرَهُ فِي كُلِّ عَامٍ كَرَجْمِ النَّاسِ قَبْرِ أَبِي رَغَالٍ

فلما نزل أبرهة بالمغمس، بعث رجلاً من الحيشة يقال له الأسود بن مقصود على خيل له، حتى انتهى إلى مكة فساق إليه أموال أهل تهامة من قريش وغيرهم، وأصاب فيها مائتي بعير لعبدالمطلب ابن هاشم، وهو يومئذ كبير قريش وسيدها؛ فهتت قريش وكنانة وهذيل ومن كان بذلك الحرم بقاتله؛ ثم عرفوا أنهم لا طاقة لهم به، فتركوا ذلك، وبعث أبرهة حناطة الحميري إلى مكة، وقال له: سل عن سيد هذا البلد وشريفهم، ثم قل له: إن الملك يقول: إني لم آت لحربكم، إنما جئت لهدم هذا البيت، فإن لم تعرضوا لي بحرب، فلا حاجة لي بدمائكم؛ فإن هو لم يرد حربي فأتي به، فلما دخل حناطة مكة، سأل عن سيد قريش وشريفها؛ فقيل له: عبدالمطلب بن هاشم؛ فجاءه فقال له ما أمره به أبرهة؛ فقال له عبدالمطلب: والله ما نريد حربه، وما لنا بذلك منه طاقة، هذا بيت الله الحرام، وبيت خليله إبراهيم عليه السلام، أو كما قال، فإن يمنعه منه فهو حرمه وبيته، وإن يخل بينه وبينه، فوالله ما عندنا دفع عنه، فقال له حناطة: فانطلق إليه، فإنه قد أمرني أن آتيه بك؛ فانطلق معه عبدالمطلب، ومعه بعض بنيه، حتى أتى العسكرة؛ فسأل عن ذي نفر، وكان صديقاً له، حتى دخل عليه وهو في محبسه، فقال له: يا ذا نفر، هل عندك من غناء فيما نزل بنا؟ فقال له ذو نفر؛ وما غناء رجل أسير بيدي ملك، ينتظر أن يقتله غدواً وعشيا ما عندي غناء في شيء مما نزل بك، إلا أن أتيسا سائس الفيل صديق لي، فسأرسل إليه، وأوصيه بك، وأعظم عليه حقك، وأسأله أن يستأذن لك على الملك، فتكلمه بما بدا لك، ويشفع لك عنده بخير إن قدر على ذلك؛ فقال حسبي، فبعث ذو نفر إلى أنيس، فقال له: إن عبدالمطلب سيد قريش، وصاحب عين مكة، يطعم الناس بالسهل، والوحوش في رؤوس الجبال، وقد أصاب له الملك مائتي بعير، فاستأذن له عليه، وانفعه عنده بما استطعت؛ فقال: أفعل، فكلم أنيس أبرهة، فقال له: أيها الملك، هذا سيد قريش ببابك، يستأذن

(١) المغمس: بالضم، ثم الفتح وتشديد الميم وفتحها، اسم مفعول من غمست الشيء في الماء إذ غيبت فيه، موضع

قرب مكة في طريق الطائف. معجم البلدان (٥/ ١٨٨).

عليك، وهو صاحب عين مكة، يطعم الناس بالسهل، والوحوش في رؤوس الجبال؛ فأذن له عليك، فيكلمك في حاجته، قال: فأذن له أبرهة.

وكان عبدالمطلب أوسم الناس، وأعظمهم وأجملهم، فلما رآه أبرهة أجله، وأعظمه عن أن يجلسه تحته؛ فنزل أبرهة عن سريره، فجلس على بساطه وأجلسه معه عليه إلى جنبه، ثم قال لترجمانه: قل له: حاجتك؟ فقال له ذلك الترجمان، فقال: حاجتي أن يرد علي الملك مائتي بعير أصابها لي، فلما قال له ذلك، قال أبرهة لترجمانه: قل له لقد كنت أعجبتني حين رأيتك، ثم قد زهدت فيك حين كلمتني، أتكلمني في مائتي بعير أصبتها لك، وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك، قد جئت لهدمه؟ لا تكلمني فيه، فقال له عبدالمطلب: إني أنا رب الإبل، وإن للبيت ربا سيمعنه، قال: ما كان ليمنع مني. قال: أنت وذاك، فرد عليه إبله، وانصرف عبدالمطلب إلى قريش، فأخبرهم الخبر، وأمرهم بالخروج من مكة والتحرز في شعف الجبال (١) والشعاب، تخوفاً عليهم معرفة الجيش (٢)، ثم قام عبدالمطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة، وقام معه نفر من قريش، يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجنده، فقال عبدالمطلب وهو آخذ بحلقة باب الكعبة:

لا هُمَّ إِنْ الْعَبْدَ يَمُ نَع رَجَلُهُ فَاَمْنَعُ حَلَالِكَ (٣)
لا يَغْنَمُ صَلِيْبُهُمْ وَمَحَالُّهُمْ عَدَاؤُا مِحَالِكَ (٤)
إِنْ يَدْخُلُوا الْبِلْدَ الْحَرَا م فَاَمْرٌ مَا بَدَا لَكَ

يقول: أي: شيء ما بدا لك، لم تكن تفعله بنا، والحلال: جمع حل، والمحال: القوة وقيل: إن عبدالمطلب لما أخذ بحلقة باب الكعبة قال:

يا رب لا أرجو لَهم سِواكَ يا رب فامنع منهم حماكا
إِنْ عَدَاؤَ الْبَيْتِ مِنْ عَادَاكَ إِنْهُمْ لَنْ يَقْهَرُوا قُؤَاكَ

وقال عكرمة بن عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي:

لا هُمَّ أَخْزِ الْأَسْوَدَ بِنِ مَقْصُودِ الْآخِذِ الْهَجْمَةَ (٥) فِيهَا التَّقْلِيدُ (٦)
بَيْنَ حِرَاءِ وَثَبِيرٍ فَالْبَيْدِ يَحْبِسُهَا وَهِيَ أَوْلَاتُ التَّنْطْرِيدِ (٧)

(١) شعف الجبال: قممها ورؤوسها اللسان «شعف».

(٢) معرفة الجيش: النزول للأكل عند قوم بغير علمهم، والقتال دون إذن اللسان «عرر».

(٣) الحلال: بالكسر القوم المقيمون المتجاورون، يريد بهم سكان الحرم. اللسان «حلل».

(٤) العدو: الاعتداء، وفي اللسان «غدا»: غدوا بالعين المعجمة، قال ابن منظور: العدو: أصل الغد، وهو اليوم الذي يأتي بعد يومك، فحذفت لامة ولم يستعمل تاما إلا في الشعر، ولم يرد عبد المطلب الغد بعينه، وإنما أراد القريب من الزمان.

(٥) الهجمة: القطعة الضخمة من الإبل، قيل: هي ما بين الثلاثين إلى المائة. وقيل: الهجمة أولها الأربعون إلى ما زادت. وقيل: غير ذلك. انظر: اللسان «هجم».

(٦) تقليد الإبل: أن يجعل في عنقها شعاراً ليعلم أنها هدى. اللسان «قلد».

(٧) حراء وثير: جبلان بمكة، والبيد - جمع بيداء - وهي الصحراء. وتنطريد الإبل: متابعتها، قال ابن منظور: بعير مطرد وهو المتابع في سيره ولا يكبو اللسان «طرده».

فضمها إلى طماطم^(١) سود قد أجمعوا ألا يكون مَعْبُود
ويهدموا البيت الحرام المَعْمُود والمروتين والمشاعر السود
أخفزه يا ربّ وأنت محمود^(٢)

قال ابن إسحاق: ثم أرسل عبدالمطلب حلقة باب الكعبة، ثم انطلق هو ومن معه من قريش إلى شعف الجبال، فحزروا فيها، ينتظرون ما أبرهة فاعل بمكة إذا دخلها، فلما أصبح أبرهة تهيأ لدخول مكة، وهياً فيه، وعبأ جيشه، وكان اسم الفيل محمودا، وأبرهة مجمع لهدم البيت، ثم الانصراف إلى اليمن، فلما وجهوا الفيل إلى مكة، أقبل نفيل بن حبيب، حتى قام إلى جنب الفيل، ثم أخذ بأذنه فقال له: ابرك محمود، وارجع راشدا من حيث جئت، فإنك في بلد الله الحرام، ثم أرسل أذنه، فبرك الفيل، وخرج نفيل بن حبيب يشتد، حتى أصعد في الجبل، وضربوا الفيل ليقوم فأبى، فضربوا في رأسه بالطبرزين^(٣) ليقوم فأبى؛ فأدخلوا محاجن لهم^(٤) في مرقه، فبزغوه^(٥) بها ليقوم، فأبى، فوجهوه راجعا إلى اليمن، فقام يهرول ووجهوه إلى الشام، ففعل مثل ذلك، ووجهوه إلى المشرق، ففعل مثل ذلك، ووجهوه إلى مكة فبرك، وأرسل الله عليهم طيرا من البحر، أمثال الخطاطيف والبلسان^(٦)، مع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها: حجر في منقاره، وحجران في رجليه، أمثال الحمص والعدس، لا تصيب منهم أحدا إلا هلك؛ وليس كلهم أصابت، وخرجوا هارين يتدرون الطريق التي جاؤوا منها، ويسألون عن نفيل بن حبيب، ليدلهم على الطريق إلى اليمن، فقال نفيل بن حبيب حين رأى ما أنزل الله بهم من نعمته:

أين المفرُّ والإلهُ الطالبُ والأشرمُ المغلوبُ ليس الغالبُ^(٧)

وقال أيضا:

حمدتُ الله إذ أبصرتُ طيرا وخفتُ حجارةً تُلقي علينا
فكلُّ القوم يسأل عن نفيل كأن عليَّ للحبشَان دينا

فخرجوا يتساقطون بكل طريق، ويهلكون بكل مهلك على كل سهل، وأصيب أبرهة في جسده، وخرجوا به معهم يسقط أمثلة أمثلة، كلما سقطت منه أمثلة أتبعها منه مدة تمث قبحا ودما؛ حتى قدموا به صنعاء وهو مثل فرخ الطائر، فما مات حتى انصدع صدره عن قلبه؛ فيما يزعمون^(٨).

(١) الطمطم: العجمة، والطمطم والطمطمي والطماطم والطمطماني: الأعجم الذي لا يفصح. اللسان «طمم».

(٢) أخفزه: أنقض عهده ودامه: أي لا تؤمنه في حرمك. انظر: اللسان «خفر».

(٣) هي آلة من حديد.

(٤) المحاجن: جمع (محجن) وهي العصا الموجة اللسان «حجن».

(٥) بزغوه: شرطوه - كما في اللسان «بزغ».

(٦) قال ابن الأثير في النهاية (١/ ١٥٢): «قال عباد بن موسى أظنها الزرازير».

(٧) الأشرم: لقب عُرف به أبرهة.

(٨) كذا في سيرة ابن هشام (١/ ٣٣ - ٤٠)، عن ابن إسحاق، وفي انقطاع لكنه المعتمد في هذه القصة.

وقال الكلبي ومقاتل بن سليمان ^(١) يزيد أحدهما وينقص : سبب الفيل ما روي أن فتية من قريش خرجوا تجاراً إلى أرض النجاشي، فنزلوا على ساحل البحر إلى بيعة للنصارى، تسميها النصارى الهيكل، فأوقدوا ناراً لطعامهم وتركوها وارتحلوا؛ فهبت ريح عاصف على النار فأضمرت البيعة ناراً، فاحترقت، فأتى الصريخ إلى النجاشي فأخبره، فاستشاط غضباً، فأناه أبرهة بن الصباح وحجر بن شراحيل وأبو يكسوم الكنديون؛ وضمنوا له إحراق الكعبة وسبي مكة، وكان النجاشي هو الملك، وأبرهة صاحب الجيش، وأبو يكسوم نديم الملك، وقيل: وزيره، وحجر بن شراحيل من قواده، وقال مجاهد: أبو يكسوم هو أبرهة بن الصباح، فساروا ومعهم الفيل، قال الأكرثون: هو فيل واحد، وقال الضحاك: هي ثمانية فيلة، ونزلوا بذي المجاز، واستاقوا سرح مكة، وفيها إبل عبدالمطلب، وأتى الراعي نذيراً، فصعد الصفا، فصاح: واصباحاه ثم أخبر الناس بمجيء الجيش والفيل، فخرج عبدالمطلب، وتوجه إلى أبرهة، وسأله في إبله.

واختلف في النجاشي، هل كان معهم؟ فقال قوم: كان معهم، وقال الأكرثون: لم يكن معهم.

وبصر أهل مكة بالطير قد أقبلت من ناحية البحر؛ فقال عبدالمطلب: إن هذه الطير غريبة بأرضنا، وما هي بسنجدية ولا تهامية ولا حجازية وإنما أشباه اليعاسيب ^(٢)، وكان في مناقيرها وأرجلها حجارة؛ فلما أطلت على القوم ألقتهما عليهم، حتى هلكوا، قال عطاء بن أبي رباح: جاءت الطير عشية؛ فباتت ثم صبحتهم بالغدادة فرمتهم، وقال الكلبي: في مناقيرها حصى كحصى الخذف، أمام كل فرقة طائر يقودها، أحمر المنقار، أسود الرأس، طويل العنق، فلما جاءت عسكر القوم وتوافت، أهالت ما في مناقيرها على من تحتها، مكتوب على كل حجر اسم صاحبه المقتول به، وقيل: كان على كل حجر مكتوب: من أطاع الله نجاً، ومن عصاه غوى، ثم انصاعت ^(٣) راجعة من حيث جاءت، وقال العوفي: سألت عنها أبا سعيد الخدري، فقال: حمام مكة منها، وقيل: كان يقع الحجر على بيضة ^(٤) أحدهم فيخرقها، ويقع في دماغه، ويخرق الفيل والدابة، ويغيب الحجر في الأرض من شدة وقعته.

وكان أصحاب الفيل ستين ألفاً، لم يرجع منهم أحد إلا أميرهم، رجع ومعه شردمة لطيفة، فلما أخبروا بما رأوا هلكوا، وقال الواقدي: أبرهة جد النجاشي الذي كان في زمان رسول الله ﷺ،

(١) هذه الرواية فيها من المبالغات ما فيها كقوله :

(كل حجر مكتوب : من أطاع الله نجاً ، ومن عصاه غوى) .

(وأن حمام البيت أصله عن هذه الطير) .

(وتحديد أسماء القواد أيضاً فيه شك كبير) .

(ومسألة احتراق الكنيسة) ، والكلبي كذاب ، ومقاتل حاله من الضعف معلومة !! انظر دراستنا صحيح

قصص القرآن - ط - دار الحديث .

(٢) يعاسيب: جمع اليعسوب: الأمير أو ذكر النحل اللسان «عيب» .

(٣) انصاعت: أطاعت اللسان «صوع» .

(٤) البيضة: الخوذة اللسان «بيض» .

وأبرهة هو الأشرم، سمي بذلك لأنه تفانن^(١) مع أرياط، حتى تزاخفا، ثم اتفقا على أن يلتقيا بشخصيهما، فمن غلب فله الأمر، فتبارزا وكان أرياط جسيما عظيما، في يده حربة، وأبرهة قصيرا حادرا حليما ذا دين في النصرانية، ومع أبرهة وزير له يقال له عتودة، فلما دنوا ضرب أرياط بحرته رأس أبرهة، فوقعت على جيئه، فشرمت عينه وأنفه وجيئه وشفته؛ فلذلك سمي الأشرم، وحمل عتودة على أرياط فقتله، فاجتمعت الحبشة لأبرهة؛ فغضب النجاشي، وحلف ليحزن ناصية أبرهة، ويطن بلاده، فجز أبرهة ناصيته وملا مزودا من تراب أرضه، وبعث بهما إلى النجاشي، وقال: إنما كان عبدك، وأنا عبدك، وأنا أقوم بأمر الحبشة، وقد جززت ناصيتي، وبعثت إليك بتراب أرضي، لتطأه وتبر في يمينك؛ فرضي عنه النجاشي، ثم بنى أبرهة كنيسة بصنعاء، ليصرف إليها حج العرب؛ على ما تقدم^(٢).

الرابعة: قال مقاتل: كان عام الفيل قبل مولد النبي ﷺ بأربعين سنة^(٣)، وقال الكلبي وعبيد ابن عمير: كان قبل مولد النبي ﷺ بثلاث وعشرين سنة^(٤)، والصحيح ما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «ولدت عام الفيل»، وروي عنه أنه قال: «يوم الفيل»^(٥)، حكاه الماوردي في التفسير له، وقال في كتاب أعلام النبوة: ولد رسول الله ﷺ يوم الاثنين الثاني عشر من ربيع الأول، وكان بعد الفيل بخمسين يوما، ووافق من شهور الروم العشرين من أشباط، في السنة الثانية عشرة من ملك هرمز بن أنوشروان، قال: وحكى أبو جعفر الطبري أن مولد النبي ﷺ كان لاثنتين وأربعين سنة من ملك أنوشروان، وقد قيل: إنه عليه الصلاة والسلام حملت به أمه آمنة في يوم عاشوراء من المحرم، وولد يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر رمضان؛ فكانت مدة حملها ثمانية أشهر كملا ويومين من التاسع، وقيل: إنه ولد يوم عاشوراء من شهر المحرم؛ حكاه ابن شاهين أبو حفص، في «فضائل يوم عاشوراء» له، ابن العربي: قال ابن وهب عن مالك: ولد رسول الله ﷺ عام الفيل، وقال قيس بن مخزومة: ولدت أنا ورسول الله ﷺ عام الفيل^(٦)، وقد روى الناس عن مالك أنه قال: من مروءة الرجل ألا يخبر بسنه؛ لأنه إن كان صغيرا استحقره وإن كان كبيرا استهمومه، وهذا قول ضعيف؛ لأن مالكا لا يخبر بسن رسول الله ﷺ ويكتم سنه؛ وهو من أعظم العلماء قدوة به، فلا بأس بأن يخبر الرجل بسنه كان كبيرا أو صغيرا، وقال عبد الملك بن مروان لقبث بن أشيم: أنت أكبر أم النبي ﷺ؟ فقال: النبي ﷺ أكبر مني، وأنا أسن منه؛ ولد النبي ﷺ عام الفيل، وأنا أدركت

(١) أى: تقاتلا.

(٢) اللسان «فتن» والخير عند ابن هشام عن ابن إسحاق كما في السيرة النبوية (١/ ٣١، ٣٢)، والواقدي متروك.

(٣) هذا كذب، والمشهور مولده عليه السلام في عام الفيل.

(٤) وهو كذب كسابقه.

(٥) بل الصحيح ما رواه ابن عباس أنه قال: (ولد رسول الله ﷺ يوم الفيل).

وانظر: تفسير الماوردي (٦/ ٣٤٤).

قلت: ولا يصح أى خبر بعد ذلك من ميلاده إلا في الثاني عشر من ربيع الأول كما جاء في بعض الروايات

بحمد الله.

(٦) ضعيف: الترمذي (٣٦١٩) في المناقب وضعفه الألباني هناك.

سائسه وقائده أعميين مقعدين يستطعمان الناس^(١)، وقيل لبعض القضاة: كم سنك؟ قال: سن عتاب بن أسيد حين ولاه النبي ﷺ مكة، وكان سنه يومئذ دون العشرين.

الخامسة: قال علماؤنا: كانت قصة الفيل فيما بعد من معجزات النبي ﷺ وإن كانت قبله وقبل التحدي؛ لأنها كانت توكيدا لأمره، وتمهيدا لشأنه، ولما تلا عليهم رسول الله ﷺ هذه السورة، كان بمكة عدد كثير ممن شهد تلك الوقعة؛ ولهذا قال: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ولم يكن بمكة أحد إلا وقد رأى قائد الفيل وسائقه أعميين يتكففان الناس، وقالت عائشة رضي الله عنها مع حادثة سنها: لقد رأيت قائد الفيل وسائقه أعميين يستطعمان الناس^(٢)، وقال أبو صالح: رأيت في بيت أم هانئ بنت أبي طالب نحواً من قفيزين من تلك الحجارة، سودا مخططة بحمرة .

﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾ أي: في إبطال وتضييع؛ لأنهم أرادوا أن يكيدوا قريشا بالقتل والسيي، والبيت بالتحريب والهدم، فحكى عن عبد المطلب أنه بعث ابنه عبد الله على فرس له، ينظر ما لقوا من تلك الطير، فإذا القوم مشرخون جميعا، فرجع يركض فرسه، كاشفا عن فخذيه، فلما رأى ذلك أبوه قال: إن ابني هذا أفرس العرب، وما كشف عن فخذيه إلا بشيرا أو نذيرا، فلما دنا من ناديهم بحيث يسمعون الصوت، قالوا: ما وراءك؟ قال: هلكوا جميعا، فخرج عبد المطلب وأصحابه، فأخذوا أموالهم، وكانت أموال بني عبد المطلب منها، وبها تكاملت رئاسة عبد المطلب؛ لأنه احتمل ما شاء من صفراء وبيضاء، ثم خرج أهل مكة بعده ونهبوا، وقيل: إن عبد المطلب حفر حفرتين فملاهما من الذهب والجوهر، ثم قال لأبي مسعود الثقفي وكان خليلا لعبد المطلب: اختر أيهما شئت، ثم أصاب الناس من أموالهم حتى ضاقوا ذرعاً، فقال عبد المطلب عند ذلك:

أنت منعت الحبش والأفيا لا وقد رعوا بمكة الأجبالا
وقد خشينا منهم القتالا وكل أمر لهم معضالا
شكراً وحمداً لك ذا الجلالا

قال ابن إسحاق: ولما رد الله الحبشة عن مكة عظمت العرب قريشاً، وقالوا: هم أهل الله، قاتل الله عنهم وكفاهم مؤونة عدوهم، وقال عبد الله بن عمرو بن مخزوم، في قصة أصحاب الفيل:

أنت الجليلُ ربنا لم تدنس أنت حبستَ الفيلَ بالمغمسِ
من بعد ما هم بشرٌ مبلس حبسته في هيئة المكرسِ
وما لهم من فرج ومنفس

والمكرس: المنكوس المطروح.

(١، ٢) رواه البزار بإسناد رجاله ثقات كما في المجمع (٣/ ٢٨٥)، لكن من قول عائشة رضي الله عنها .
وشرح ابن إسحاق بالتحديث فيه كما في السيرة النبوية (١/ ١٧٦) لابن هشام .

﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴾

قال سعيد بن جبير: كانت طيرا من السماء لم ير قبلها، ولا بعدها مثلها، وروى جوير عن الضحاك عن ابن عباس، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنها طير بين السماء والأرض تعشش وتفرخ»^(١)، وعن ابن عباس: كانت لها خراطيم كخراطيم الطير، وأكف كأكف الكلاب، وقال عكرمة: كانت طيرا خضرا، خرجت من البحر، لها رؤوس كرؤوس السباع، ولم تر قبل ذلك ولا بعده، وقالت عائشة رضي الله عنها: هي أشبه شيء بالخطاطيف، وقيل: بل كانت أشباه البواطيط، حمراء وسوداء، وعن سعيد بن جبير أيضا: هي طير خضر لها مناقير صفر، وقيل: كانت بيضا، وقال محمد بن كعب: هي طير سود بحرية، في مناقيرها وأظفارها الحجارة، وقيل: إنها العنقاء المغرب التي تضرب بها الأمثال^(٢)؛ قال عكرمة: «أبَابِيلُ» أي: مجتمعة، وقيل: متتابعة، بعضها في إثر بعض؛ قاله ابن عباس ومجاهد، وقيل مختلفة متفرقة، تجيء من كل ناحية من ها هنا وها هنا؛ قاله ابن مسعود وابن زيد والأخفش، قال النحاس: وهذه الأقوال متفقة، وحقيقة المعنى: أنها جماعات عظام، يقال: فلان يؤبل على فلان؛ أي: يعظم عليه ويكثر؛ وهو مشتق من الإبل، واختلف في واحد أبابيل؛ فقال الجوهري: قال الأخفش يقال: جاءت إبلك أبابيل؛ أي: فرقا، وطيرا أبابيل، قال: وهذا يجيء في معنى التكاثر، وهو من الجمع الذي لا واحد له، وقال بعضهم: واحده أبول، مثل عجول، وقيل بعضهم: إبل مثل سكين، قال: ولم أجد العرب تعرف له واحدا في غير «الصحاح»، وقيل في واحده إبال، وقال رؤبة بن العجاج في الجمع:

ولعبت طير بهم أبابيل فصيروا مثل كعصفٍ مأكول

وقال الأعشى:

طريقٌ وجبارٌ رواءُ أصولُهُ عليه أبابيل من الطير تنعب

وقال آخر:

كادت تُهدُّ من الأصواتِ راحلتي إذ سالت الأرضُ بالجردِ الأبابيل

وقال آخر:

تراهم إلى الداعي سراعا كأنهم أبابيل طير تحت دجن مسجن

قال الفراء: لا واحد له من لفظه، وزعم الرؤاسي - وكان ثقة - أنه سمع في واحدها «إبالة» مشددة، وحكى الفراء «إبالة» مخففا، قال: وسمعت بعض العرب يقول: ضغت على إبالة، يريد: خصبا على خصب، قال: ولو قال قائل إبالة كان صوابا؛ مثل دينار ودنانير، وقال إسحاق بن عبدالله بن الحارث بن نوفل: الأبابيل: مأخوذ من الإبل المؤبلة؛ وهي الأقاطيع.

(١) موضوع: جوير متروك، والضحاك لم يلق ابن عباس رضي الله عنهما، وانظر: روح المعاني (٩/ ٥٨).

(٢) هذه كلها آثار لا نقف لها على سند تاريخي صحيح، فالذين رووها لم يشهدوا القصة ولا قالوا عن رووها وعتقاء المغرب: طائر عظيم يبعد في طيرانه، ولعلها من الخرافات كما في اللسان «غرب». وانظر الطبري (٣٠/ ٣٢٨، ٣٢٩) وفي الروايات مبالغات واضحتان.

﴿ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ ﴾

في الصحاح ﴿حِجَارَةٌ مِنْ سِجِّيلٍ﴾ قالوا: حجارة من طين، طبخت بنار جهنم، مكتوب فيها أسماء القوم؛ لقوله تعالى: ﴿لَنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ مُسَوَّمَةً﴾ [الذاريات: ٣٣]، وقال عبدالرحمن ابن أبيزى: ﴿مِنْ سِجِّيلٍ﴾: من السماء، وهي الحجارة التي نزلت على قوم لوط، وقيل: من الجحيم، وهي ﴿سِجِّينٌ﴾ ثم أبدلت اللام نوناً؛ كما قالوا في أصيلان: أصيلا، قال ابن مقبل:

ضَرْبًا تَوَاصَّتْ بِهِ الْأَبْطَالُ سَجِينَا

وإنما هو سجيلا، وقال الزجاج: ﴿مِنْ سِجِّيلٍ﴾ أي: مما كتب عليهم أن يعذبوا به؛ مشتق من السجل، وقد مضى القول في سجيل في «هود» مستوفى^(١)، قال عكرمة: كانت ترميهم بحجارة معها، فإذا أصاب أحدهم حجر منها خرج به الجدرى لم يرقب ذلك اليوم، وكان الحجر كالحمصه وفوق العدسة، وقال ابن عباس: كان الحجر إذا وقع على أحدهم نفض جلده، فكان ذلك أول الجدرى^(٢)، وقراءة العامة: ﴿تَرْمِيهِمْ﴾ بالتاء، لفانث جماعة الطير، وقرأ الأعرج وطلحة «يرميهم» بالياء؛ أي: يرميهم الله؛ دليله قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ [الأنفال: ١٧] ويجوز أن يكون راجعا إلى الطير، لخلوها من علامات التأنث، ولأن تأنثها غير حقيقي.

﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ ﴾

أي: جعل الله أصحاب الفيل كورق الزرع إذا أكلته الدواب، فرمت به من أسفل، شبه تقطع أوصالهم بتفرق أجزائه، روى معناه عن ابن زيد وغيره، وقد مضى القول في العصف في سورة «الرحمن»^(٣) وما يدل على أنه ورق الزرع قول علقمة:

تسقي مذائب قد مالت عصيفتها . . . حليورها من أتى الماء مطموم

وقال رؤبة بن العجاج:

ومسهم ما مس أصحاب الفيل . . . ترميهم حجارة من سجيل

ولعبت طير بهم أبابيل فصيروا . . . مثل كعصف مأكول

العصف: جمع، واحده عصفه وعصافة، وعصيفة، وأدخل الكاف في ﴿كَعَصْفٍ﴾ للتشبيه مع مثل، نحو قوله تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، ومعنى ﴿مَأْكُولٍ﴾ حبه، كما يقال: فلان حسن؛ أي: حسن وجهه، وقال ابن عباس ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾ أن المراد به قشر البر؛ يعني

(١) عند الآية (٨٢).

(٢) هذا كلام على كثرة تكراره كما ذكره ابن كثير (٨ / ٣٨١)، وغيره إلا أن القرآن صرح أنه ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾ أي كورق الثبن ولا تفاصيل أخرى، وإن كان حدوث الجدرى على وزن ما يعرف الآن بـ (الحرب الجرثومية) غير مستحيل عقلاً، لكن القرآن لم يصرح به، ولا ذكره النبي ﷺ ثم الآية صريحة - كما ذكرنا - في هلاكهم والنعت هنا فيه ﴿فَجَعَلَهُمْ﴾، والفاء تفيد التعقيب لا الانفصال، مما يعني هلاك من تقع عليه كما حدث مع ثمود وعاد وقوم لوط، أما الميكروب فيحتاج لفترة حضانة، ومقاومة وغيرها، والله أعلم.

(٣) عند الآية (٨٢).

الغلاف الذي تكون فيه حبة القمح، ويروى أن الحجر كان يقع على أحدهم فيخرج كل ما في جوفه، فيبقى كقشر الحنطة إذا خرجت منه الحبة، وقال ابن مسعود: لما رمت الطير بالحجارة، بعث الله ريحا فضربت الحجارة فزادتها شدة، فكانت لا تقع على أحد إلا هلك، ولم يسلم منهم إلا رجل من كندة؛ فقال:

فإنك لو رأيت ولم تَريه لدى جنب المغمس ما لقينا
خشيتُ الله إذ قد بثَّ طيرا وظل سحابةً مرّت علينا
وباتت كُلها تدعو بحقَّ كأن لها على الحُبشان دينا

ويروى أنها لم تصبهم كلهم، لكنها أصابت من شاء الله منهم، وقد تقدم أن أميرهم رجع وشرذمة لطيفة معه، فلما أخبروا بما رأوا هلكوا، فالله أعلم، وقال ابن إسحاق: لما رد الله الحبشة عن مكة، عظمت العرب قريشا وقالوا: أهل الله، قاتل عنهم، وكفاهم مؤونة عدوهم، فكان ذلك نعمة من الله عليهم (١).

(١) انظر: سيرة ابن هشام (١/ ٤٠، ٤١).

سورة قريش

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾

قيل: إن هذه السورة متصلة بالتي قبلها في المعنى، يقول: أهلكت أصحاب الفيل لإيلاف قريش؛ أي: لتألف قريش، أو لتتفق قريش، أو لكي تأمن قريش فتؤلف رحلتها، ومن عد السورتين واحدة أبي بن كعب، ولا فصل بينهما في مصحفه، وقال سفيان بن عيينة: كان لنا إمام لا يفصل بينهما، ويقرؤهما معا، وقال عمرو بن ميمون الأودي: صلينا المغرب خلف عمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ فقرأ في الأولى: ﴿وَالَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونَ﴾ [التين: ١] وفي الثانية: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ﴾ [الفيل: ١] و﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [قريش: ١]، وقال الفراء^(١): هذه السورة متصلة بالسورة الأولى؛ لأنه ذكر أهل مكة عظيم نعمته عليهم فيما فعل بالحيشة، ثم قال: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ أي: فعلنا ذلك بأصحاب الفيل نعمة منا على قريش، وذلك أن قريشا كانت تخرج في تجارتها، فلا يغار عليها ولا تقرب في الجاهلية، يقولون هم أهل بيت الله جل وعز؛ حتى جاء صاحب الفيل ليهدم الكعبة، ويأخذ حجارها، فيبني بها بيتا في اليمن يحج الناس إليه، فأهلكهم الله عز وجل، فذكرهم نعمته، أي: فجعل الله ذلك لإيلاف قريش، أي: ليألفوا الخروج ولا يجترأ عليهم؛ وهو معنى قول مجاهد وابن عباس في رواية سعيد بن جبيرة عنه^(٢)، وذكره النحاس: حدثنا أحمد بن شعيب قال أخبرني عمرو بن علي قال: حدثني عامر بن إبراهيم - وكان ثقة من خيار الناس - قال حدثني خطاب بن جعفر بن أبي المغيرة، قال: حدثني أبي عن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس، في قوله تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ قال: نعمتي على قريش لإيلافهم رحلة الشتاء والصيف، قال: كانوا يشتون بمكة، ويصيفون بالطائف^(٣)، وعلى هذا القول يجوز الوقف على رؤوس الآي وإن لم يكن الكلام تاما؛ على ما نبينه أثناء السورة، وقيل: ليست بمتصلة؛ لأن بين السورتين «بسم الله الرحمن الرحيم» وذلك دليل على انقضاء السورة وافتتاح الأخرى، وأن اللام متعلقة بقوله تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا﴾ أي: فليعبدوا هؤلاء رب هذا البيت، لإيلافهم رحلة الشتاء والصيف للاختيار، وكذا قال الخليل: ليست متصلة؛ كأنه قال: أَلَّفَ الله قريشا لإيلافا فليعبدوا رب هذا البيت، وعمل ما بعد الفاء فيما قبلها لأنها زائدة غير عاطفة؛ كقولك: زيدا فاضرب، وقيل: اللام في قوله تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ لام التعجب؛ أي: اعجبوا لإيلاف قريش [رحلة الشتاء والصيف، وتركهم عبادة رب هذا البيت]؛ قاله الكسائي والأخفش، وقيل: بمعنى إلى،

(١) انظر: معاني القرآن (٣/ ٢٩٣) للفراء، والبهوي (٨/ ٥٤٣) في تفسيره.

(٢، ٣) ذكر الطبري (٣٠/ ٣٣٧) في تفسيره، قول مجاهد هذا، وبنحوه عن ابن عباس، من طريق سعيد بن جبيرة.

وقرأ ابن عامر: «الإلاف قریش» مهموزاً مختلساً بلا ياء^(١)، وقرأ أبو جعفر والأعرج «إلاف» بلا همز طلباً للخفض، الباقون: «الإلاف» بالياء مهموزاً مشبوعاً؛ من ألفت أولف إلافاً، قال الشاعر:

المُتعمين إذا النجومُ تَغَيَّرتْ والظَّاعنين لرحلةِ الإيلافِ

ويقال: ألفتها إلفاً وإلافاً، وقرأ أبو جعفر أيضاً: «إلاف قریش» وقد جمعهما من قال:

زعمتم أن إخوتكم قُرَيْشُ لهم إلفٌ وليس لكم إلافٌ

قال الجوهري: وفلان قد ألف هذا الموضع بالكسر يالف إلفاً، وألفه إياه غيره، ويقال أيضاً:

ألفت الموضع أولفه إلافاً، وكذلك: ألفت الموضع أزالفه مؤالفة وإلافاً؛ فصار صورة أفعال وفاعل في الماضي واحدة، وقرأ عكرمة: «ليألف» بفتح اللام على الأمر، وكذلك هو في مصحف ابن مسعود، وفتح لام الأمر لغة حكاها ابن مجاهد وغيره، وكان عكرمة يعيب على من يقرأ «الإلاف قُرَيْشُ»، وقرأ بعض أهل مكة «إلاف قریش» واستشهد بقول أبي طالب يوصي أخاه أبا لهب برسول الله ﷺ:

فلا تتركه ما حبيت لمُعظَم وكن رجلاً ذا نَجْدَةٍ وَعَقَافِ

تَدُودِ العِدا عن عَصْبَةِ هاشمِيَةٍ إلافهم في النَّاسِ خَيْرُ إلافِ

وأما قریش فهم بنو النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر، فكل من كان من

ولد النضر فهو قرشي دون بني كنانة ومن فوقه، وربما قالوا: قرشي، وهو القياس؛ قال الشاعر:

بكل قُرَيْشِي عليه مَهَابَةٌ

فإن أردت بقریش الحمي صرفته، وإن أردت به القبيلة لم تصرفه؛ قال الشاعر:

وَكَفَى قُرَيْشِ المعضلاتِ وسادها

والتقریش: الاكتساب، وتقرشوا أي: تجمعوا، وقد كانوا متفرقين في غير الحرم، فجمعهم قصي

ابن كلاب في الحرم، حتى اتخذوه مسكناً، قال الشاعر:

أبونا قُصِيٌّ كان يُدعى مُجمَعاً به جَمَعَ اللهُ القَبائِلَ مِن فِهْرٍ

وقد قيل: إن قریشاً بنو فِهْر بن مالك بن النضر، فكل من لم يلبده فِهْر فليس بقرشي، والأول

أصح وأثبت، وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «إنا ولد النضر بن كنانة لا نقفو أمنا، ولا نتفي من

أبينا»^(٢)، وقال واثلة بن الأسقع: قال النبي ﷺ: «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل،

واصطفى من بني كنانة قریشاً، واصطفى من قریش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم»^(٣)،

صحيح ثابت، خرجه البخاري ومسلم وغيرهما، واختلف في تسميتهم قریشاً على أقوال: أحدها:

لتجمعهم بعد التفرق، والتقرش: التجمع والالتئام، قال أبو جلدة الشكري:

إخوة قُرَشُوا الذُّنُوبَ عَلِينَا في حَدِيثٍ مِن دَهْرِهِم وَقَدِيمِ

(١) قراءتان متواترتان: كما في تقريب النشر (ص ١٨٩).

(٢) حسن: ابن ماجه (٢٦١٢) في الحدود عن الأشعث بن قيس وحسنه الألباني هناك.

وقوله: لا نقفوا: لا نتهم، ولا نقذف، وقيل: لا نقذفها بما ليس فيها، وقيل: لا نترك النسب إلى الآباء

وتنسب إلى الأمهات كما في النهاية (٩٥ / ٤) لابن الأثير.

(٣) صحيح: مسلم (٢٢٧٦ / ١) في الفضائل، عن واثلة بن الأسقع رضى الله عنه، وليس عند البخاري كما وهم

المصنف - رحمه الله.

الثاني: لأنهم كانوا تجارا يأكلون من مكاسبهم، والتقرش: التكسب، وقد قرش يقرش قرشا: إذا كسب وجمع، فمال الفراء: وبه سميت قريش، الثالث: لأنهم كانوا يفتشون الحاج^(١) عن ذي الخلة^(٢)، فيسدون خلته، والقرش: التفتيش، قال الشاعر:

أَيُّهَا الشَّامُ الْمُقْرَشُ عَنَا عِنْدَ عَمْرٍو فَهَلْ لَهُ إِبْقَاءُ

الرابع^(٣): ما روي أن معاوية سأل ابن عباس لم سميت قريش قريشا؟ فقال: لدابة في البحر من أقوى هوابه يقال لها القرش؛ تاكل ولا تؤكل، وتعلو ولا تُعلَى، وتُأشَدُ قول تبع:

قريش هي التي تَسْكُنُ البحرَ رَ بها سَمِيتُ قُريشُ قُريشَا
تَأْكُلُ الغُثَّ والسَّمِينُ ولا تَتَنَا رِك فِيهَا لذي جَنَاحِين رِيشَا
هكذا في البلادِ حَيُّ قُريشِ يَأْكُلُونَ البِلَادَ أَكْلا كَمِيشَا
ولهم آخِرَ الزَّمانِ نَبِي يَكْثُرُ القَتْلُ فِيهِمُ والحَمُوشَا

﴿إِلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصِّيفِ﴾

قرأ مجاهد وحמיד: «إِلَافِهِمْ» ساكنة اللام بغير ياء، وروي نحوه عن ابن كثير، وكذلك روت أسماء أنها سمعت رسول الله ﷺ يقرأ «إِلَافِهِمْ»^(٤)، وروي عن ابن عباس وغيره، وقرأ أبو جعفر والوليد عن أهل الشام وأبو حنيفة: «إِلَافِهِمْ» مهموزا مختلسا بلا ياء^(٥)، وقرأ أبو بكر عن عاصم «إِلَافِهِمْ» بهمزتين، الأولى مكسورة والثانية ساكنة، والجمع بين الهمزتين في الكلمتين شاذ، الباقون «إِلَافِهِمْ» بالمد والهمز؛ وهو الاختيار، وهو بدل من الإيلاف الأول لليبان، وهو مصدر أَلَفَ: إذا جعلته يَأْلَفُهُ، وألف هو إلفا؛ على ما تقدم ذكره من القراءة؛ أي: وما قد أَلَفُوهُ من رحلة الشتاء والصيف.

وروي ابن أبي نعيم عن مجاهد في قوله تعالى: «إِلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصِّيفِ﴾ قال: لا يشق عليهم رحلة شتاء ولا صيف، منهُ عَلَى قريش، وقال الهروي وغيره: وكان أصحاب الإيلاف أربعة إخوة: هاشم، وعبد شمس، والمطلب، ونوفل؛ بنو عبد مناف، فأما هاشم فإنه كان يؤلف ملك الشام؛ أي: أخذ منه حبلا وعهدا يأمن به في تجارته إلى الشام، وأخوه عبد شمس كان يؤلف إلى الحبشة، والمطلب إلى اليمن، ونوفل إلى فارس، ومعنى يؤلف يجير، فكان هؤلاء الإخوة يسمون المجيرين، فكان تجار قريش يختلفون إلى الأمصار بحبل هؤلاء الإخوة، فلا يتعرض لهم، قال

(١) الحاج: الحجاج، أي: يبحثون عن أحوالهم. اللسان «حجيج».

(٢) الخلة: الحاجة والفقر. اللسان «خلل».

(٣) ذكره ابن كثير (٢/ ٢٠٢) في البداية وعزاه للبيهقي، وكذا عزاه السيوطي (٦/ ٦٨٠) للبيهقي في الدلائل.

(٤) ضعف: فيه شهر بن حوشب وهو مختلف فيه، وليث بن أبي سليم وهو مختلط ومدلس جداً، وفيه من طريق الطبري محمد بن حميد وهو متهم بالكذب، وانظر: الطبري (٣٠/ ٣٣٦) في تفسيره، والحاكم

(٣٠١٤) في مستدرکه.

(٥) قراءة متواترة: كما في تقريب النشر (ص١٨٩).

الأزهري: الإيلاف: شبه الإجارة بالخفارة (١)؛ يقال: آلف يؤلف: إذا أجار الحمائل بالخفارة، والحمائل: جمع حمولة (٢)، قال: والتأويل: أن قريشاً كانوا سكان الحرم، ولم يكن لهم زرع ولا ضرع، وكانوا يبيرون في الشتاء والصيف آمنين، والناس يُتَخَفون من حولهم، فكانوا إذا عرض لهم عارض قالوا: نحن أهل حرم الله، فلا يتعرض الناس لهم، وذكر أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا في تفسيره: حدثنا سعيد بن محمد، عن بكر بن سهل الديماطي، بإسناده إلى ابن عباس، في قول الله عز وجل: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ﴾ إلفهم رحلة الشتاء والصيف، وذلك أن قريشاً كانوا إذا أصابت واحدا منهم مخصصة (٣)، جرى هو وعياله إلى موضع معروف، فضربوا على أنفسهم خباءً فماتوا؛ حتى كان عمرو بن عبد مناف، وكان سيداً في زمانه، وله ابن يقال له أسد، وكان له ترب (٤) من بني مخزوم، يحبه ويلعب معه، فقال له: نحن غدا نعتقد، قال ابن فارس: هذه لفظة في هذا الخبر لا أدري: بالدال هي أم بالراء؛ فإن كانت بالراء فلعلها من العفر، وهو التراب، وإن كان بالدال، فما أدري معناها، وتأويله على ما أظنه: ذهابهم إلى ذلك الخباء، وموتهم واحداً بعد واحد، قال: فدخل أسد على أمه بيكي، وذكر ما قاله تربه، قال: فأرسلت أم أسد إلى أولئك بشحم ودقيق، فعاشوا به أياماً، ثم إن تربه أتاه أيضاً فقال: نحن غدا نعتقد، فدخل أسد على أبيه بيكي، وخبره خبر تربه، فاشتد ذلك على عمرو بن عبد مناف، فقام خطيباً في قريش وكانوا يطيعون أمره، فقال: إنكم أحدثتم حدثاً تقلون فيه وتكثر العرب، وتذلون وتعز العرب، وأنتم أهل حرم الله جل وعز، وأشرف ولد آدم، والناس لكم تبع، ويكاد هذا الاعتقاد يأتي عليكم، فقالوا: نحن لك تبع، قال: ابتدئوا بهذا الرجل - يعني أبا ترب أسد - فأغنوه عن الاعتقاد، ففعلوا، ثم إنه نحر البدن، وذبح الكباش والمعز، ثم هشم الثريد، وأطعم الناس؛ فسمي هاشماً، وفيه قال الشاعر:

عمرو الذي هَشَّمَ الثَّرِيدَ لقومه ورجالُ مكة مسنتونَ عِجافُ

ثم جمع كل بني أبي علي رحلتين: في الشتاء إلى اليمن، وفي الصيف إلى الشام للتجارات، فما ربح الغني قسمه بينه وبين الفقير، حتى صار فقيرهم كغنيهم؛ فجاء الإسلام وهم على هذا، فلم يكن في العرب بنو أبي أكثر مالا ولا أعز من قريش، وهو قول شاعرهم:

والخالطون فقيرهم بغنيهم حتى يصير فقيرهم كالكافي

فلم يزالوا كذلك حتى بعث الله رسوله محمداً ﷺ، فقال: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ أن تكثر العرب ويقولوا.

قوله تعالى: ﴿رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾ «رِحْلَةٌ» نصب بالمصدر؛ أي: ارتحالهم رحلة؛ أو بوقوع «إيلافهم» عليه، أو على الظرف، ولو جعلتها في محل الرفع، على معنى هما رحلة الشتاء والصيف، لجاز، والأول أولى، والرحلة الارتحال، وكانت إحدى الرحلتين إلى اليمن في الشتاء،

(١) الإجارة: الحماية - والخفارة: الحراسة. اللسان «خفر».

(٢) الحمولة: كل ما احتمل عليه الحى من بعير أو حمار أو غير ذلك - اللسان «حمل».

(٣) المخصصة: المجاعة. اللسان «خمص».

(٤) الترب: المثيل، ومن يقاربه في السن اللسان «ترب».

لأنها بلاد حامية، والرحلة الأخرى في الصيف إلى الشام، لأنها بلاد باردة، وعن ابن عباس أيضاً قال: كانوا يشتون بمكة لدفئها، ويصيفون بالطائف لهوائها، وهذه من أجل النعم أن يكون للقوم ناحية حاراً تدفع عنهم برد الشتاء، وناحية برد تدفع عنهم حر الصيف؛ فذكرهم الله تعالى هذه النعمة، وقال الشاعر:

تَشْتِي بِمَكَّةَ نِعْمَةً وَمَصَيْفَهَا بِالطَّائِفِ

وهنا أربع مسائل :

الأولى: اختار القاضي أبو بكر بن العربي (١) وغيره من العلماء: أن قوله تعالى: ﴿إِلَافٍ﴾ متعلق بما قبله، ولا يجوز أن يكون متعلقاً بما بعده، وهو قوله تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ قال: وإذا ثبت أنه متعلق بالسورة الأخرى - وقد قطع عنه بكلام مبتدأ، واستئناف بيان وسطر «بسم الله الرحمن الرحيم»، فقد تبين جواز الوقف في القراءة للقراء قبل تمام الكلام، وليست المواقف التي ينتزع بها القراءة شرعاً عن النبي ﷺ مروياً، وإنما أرادوا به تعليم الطلبة المعاني، فإذا علموها وقفوا حيث شاؤوا، فأما الوقف عند انقطاع النفس فلا خلاف فيه، ولا تعد ما قبله إذا اعتراك ذلك، ولكن أبدأ من حيث وقف بك نفسك، هذا رأيي فيه، ولا دليل على ما قالوه، بحال، ولكنني أعتمد الوقف على التمام، كراهية الخروج عنهم.

قلت: ومن الدليل على صحة هذا، قراءة النبي ﷺ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ثم يقف، ﴿الرُّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ثم يقف، وقد مضى في مقدمة الكتاب، وأجمع المسلمون أن الوقف عند قوله: ﴿كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾ [الفيل: ٥] ليس بقبیح، وكيف يقال إنه قبیح وهذه السورة تقرأ في الركعة الأولى والتي بعدها في الركعة الثانية، فيتخللها مع قطع القراءة أركان؟ وليس أحد من العلماء يكره ذلك، وما كانت العلة فيه إلا أن قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾ انتهاء آية، فالقياس على ذلك: ألا يمتنع الوقف عند أعجاز الآيات سواء كان الكلام يتم، والغرض ينتهي، أو لا يتم، ولا ينتهي، وأيضاً فإن الفواصل حلية وزينة للكلام المنظوم، ولولاها لم يتبين المنظوم من المنشور، ولا خفاء أن الكلام المنظوم أحسن؛ فثبت بذلك أن الفواصل من محاسن الكلام المنظوم، فمن أظهر فواصله بالوقوف عليها فقد أبدى محاسنه، وتركه الوقوف يخفي تلك المحاسن، ويشبه المنشور بالمنظوم، وذلك إخلال بحق المقروء.

الثانية: قال مالك: الشتاء نصف السنة، والصيف نصفها، ولم أزل أرى ربيعة بن أبي عبدالرحمن ومن معه لا يخلعون عمائمهم حتى تطلع الثريا، وهو يوم التاسع عشر من بشنس، وهو يوم خمسة وعشرين من عدد الروم أو الفرس، وأراد بطلوع الثريا أن يخرج الساعة، ويسير الناس بمواشيهم إلى مياههم، وأن طلوع الثريا أول الصيف ودبر الشتاء، وهذا مما لا خلاف فيه بين أصحابه عنه، وقال عنه أشهب وحده: إذا سقطت الهقعة (٢) نقص الليل، فلما جعل طلوع الثريا أول

(١) أحكام القرآن (٤/ ١٩٨١) لابن العربي المالكي .

(٢) الهقعة: ثلاثة كواكب نيرة قريبة بعضها من بعض فوق منكب الجوزاء، وقيل: هي رأس الجوزاء كأنها أثنافى

وهي منزل من منازل القمر اللسان «هقع».

قلت: رسمها في السماء هكذا - على شكل الأثافي - يعني: الحجارة التي حول النار .

الصيف، وجب أن يكون له في مطلق السنة ستة أشهر، ثم يستقبل الشتاء من بعد ذهاب الصيف ستة أشهر، وقد سئل محمد بن عبدالحكم عن حلف ألا يكلم أمراً حتى يدخل الشتاء؟ فقال: لا يكلمه حتى يمضى سبعة عشر من هاتور، ولو قال يدخل الصيف، لم يكلمه حتى يمضى سبعة عشر من بشنس، قال القرظي: أما ذكر هذا عن محمد في بشنس، فهو سهو، إنما هو تسعة عشر من بشنس، لأنك إذ حسبت المنازل على ما هي عليه، من ثلاث عشرة ليلة كل منزلة، علمت أن ما بين تسع عشرة من هاتور لا تنقضي منازلها إلا بدخول تسع عشرة من بشنس^(١)، والله أعلم.

الثالثة: قال قوم: الزمان أربعة أقسام: شتاء، وربيع، وصيف، وخريف، وقال قوم: هو شتاء، وصيف، وقيظ، وخريف، والذي قاله مالك أصح؛ لأن قسمة الله للزمان قسمين ولم يجعل لهما ثالثاً.

الرابعة: لما امتن الله تعالى على قريش برحلتين، شتاءً وصيفاً، على ما تقدم، كان فيه دليل على جواز تصرف الرجل في الزمانين بين محلين، يكون حالهما في كل زمان أنعم من الآخر؛ كالحلوس في المجلس البحري في الصيف، وفي القبلي في الشتاء، وفي اتخاذ البادهنجات^(٢) والخيش للتبريد، واللبد واليانوسة للدفء.

﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾

أمرهم الله تعالى بعبادته وتوحيده، لأجل إيلافهم رحلتين، ودخلت الفاء لأجل ما في الكلام من معنى الشرط، لأن المعنى: إما لا فليعبدوه لإيلافهم؛ على معنى أن نعم الله تعالى عليهم لا تحصى، فإن لم يعبدوه لسائر نعمه، فليعبدوه لشأن هذه الواحدة، التي هي نعمة ظاهرة، والبيت: الكعبة، وفي تعريف نفسه لهم بأنه رب هذا البيت وجهان: أحدهما: لأنه كانت لهم أوثان فيميز نفسه عنها. الثاني: لأنهم بالبيت شرفوا على سائر العرب، فذكر لهم ذلك، تذكيراً لنعمته، وقيل: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ أي: ليألفوا عبادة رب الكعبة، كما كانوا يالْفون الرحلتين، قال عكرمة: كانت قريش قد ألفوا رحلة إلى بصرى ورحلة إلى اليمن، فقيل لهم: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ أي: يقيموا بمكة، رحلة الشتاء، إلى اليمن، والصيف: إلى الشام.

﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾

قوله تعالى: ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ﴾ أي: بعد جوع، ﴿وَأَمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ قال ابن عباس: وذلك بدعوة إبراهيم عليه السلام حيث قال: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ [البقرة: ١٢٦]، وقال ابن زيد: كانت العرب يغير بعضها على بعض، ويسبي بعضها من بعض، فأمنت قريش من ذلك لمكان الحرم وقرأ: ﴿أَوْ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجَنَّبُنِي إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [القصص: ٥٧]، وقيل: شق

(١) بشنس، وهاتور من أسماء شهور السنة عند أقباط مصر.

(٢) البادهنجات: كما في هامش المطبوعة: جمع (بادهنج) وهي لفظة معربة: بادخون، أو بادكير، منقذ في سقف البيت يدخل منه الهواء.

عليهم السفر في الشتاء والصيف، فألقى الله في قلوب الحبيشة أن يحملوا إليهم طعاما في السفن، فحملوه؛ فخافت قريش منهم، وظنوا أنهم قدموا لحربهم، فخرجوا إليهم متحريزين، فإذا هم قد جلبوا إليهم الطعام، وأهانوهم بالأقوات؛ فكان أهل مكة يخرجون إلى جدة بالإبل والحمرة، فيشترون الطعام، على مسيرة ليلتين، وقيل: هذا الإطعام هو أنهم لما كذبوا النبي ﷺ دعا عليهم، فقال: «اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف» ^(١) فاشتد القحط، فقالوا: يا محمد ادع الله لنا فإننا مؤمنون، فدعا فأخصبت تباله وجرش من بلاد اليمن؛ فحملوا الطعام إلى مكة، وأخصب أهلها، وقال الضحاك والربيع وشريك وسفيان: ﴿وَأَمَّنَّهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ أي: من خوف الجذام، لا يصيبهم ببلدهم الجذام ^(٢)، وقاله الأعمش: ﴿وَأَمَّنَّهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ أي: من خوف الحبيشة مع الفيل، وقال علي رضي الله عنه: ﴿وَأَمَّنَّهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ أن تكون الخلافة إلا فيهم ^(٣)، وقيل: أي: كفاهم أخذ الإيلاف من الملوك. فالله أعلم، والملفظ يعم.

(١) متفق عليه: البخاري (٤٨٢١) في التفسير، ومسلم (٢٧٩٨ / ٤١) في صفات المنافقين عن ابن مسعود رضي الله عنه، وعن أمه.

(٢) أسانيد صحاح إلى أصحابها: الطبري (٣٠ / ٣٤٠) في تفسيره.

(٣) لا أصل له: وقول الأعمش عند ابن أبي حاتم (١٢ / ٤٥٧) في تفسيره.

قلت: والأصح: الأمن من كل خوف، فحباهم ربنا سبحانه بصحراء واسعة لا يقتحمها جيش فارس أو الروم، وبارك لهم في الطعام فحماهم من الجوع بدعوة إبراهيم عليه السلام، وأمنهم من الخوف في الحرم فلا تغير عليهم عرب أو جيش.